اَلنَّحْـو وَالنُّحَـاةُ عِنْـدَ اَلْجَاحِـظِ.

د. عبد الله أحمد جاد الكريم

قسم اللغة العربية – عمادة السنة التحضيرية – جامعة جازان – المملكة العربية السعودية

مُقَدِمَةُ :

اَلْحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى اَلْمَبْعُوثِ رَحْمةً لِلعَالَمِينَ، سَيِّدِنَا وحَبِيبِنَا وشَفِيعْنَا مُحَمَّدٍ بِنِ عبدِ الله النَّبيِّ الأمينِ، وعلَى آلِهِ وصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، أمَّا بَعْدُ ...

فيقول الجاحظ:"جَنَّبَك اللهُ الشُّبْهَةَ، وَعصَمك من الحَيرة، وجَعلَ بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق سَبَبا، وحبَّب إليك التثبُّت، وزيَّن في عينك الإنصاف، وأذاقكَ حَلاوةَ التَّقوى، وأشعرَ قلبك عِزَّ الحقِّ، وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقينِ، وطَرَدَ عَنْكَ ذلَّ اليأسِ، وعرَّفك ما في الباطِلِ مِنْ الذلَّةِ، وما فِي الجَهْلِ مِنْ القِلَّةِ"[1]. ويقول:"اللَّهُمَّ إنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ اَلْقَولِ، كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ اَلْعَمَلِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ التَّكَلُّفِ لِمَا لَا نُحْسِنُ، كَمَا نَعُوْذُ بِكَ مِنْ اَلْعُجْبِ بِمَا نُحْسِنُ"[2]. اللَّهُمَّ آمينَ.

الوَاقِعُ أَنَّ مَوْقِفَنَا مِنْ تُرَاثِنَا اَلْعِلْمِي يَنْبَغِي أَلَّا يَنْطلقَ مِنْ شُعُورٍ عَاطفيٍّ فَحَسْب، وألَّا يقتصرَ عَلَى تمجيدِ كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الأَسْلافُ، بَلْ لابُدَّ مِنْ العِنَايَةِ بِهَذَا التُّرَاثِ بَحْثاً ودَرْساً وتَفْسيراً وتَقْوِيماً، والجَاحِظُ – رَحِمَهُ اللهِ – عَالِمٌ لُغَوِيٌّ بَلاغِيٌّ أَديبٌ أريبٌ، نَفخرُ بِدوره ومكانَتِهِ فِي تُراثِنَا اَلْعربيِّ، وَقَدْ دَارَتْ حَوْلَهُ دِرَاسَاتٌ كَثيرةٌ، إلَّا أنَّني أَرَدْتُ أَنْ نَدْلُوَ بدلونا في الدِّراساتِ حَوْلَ عَالِمِنَا الهُمَامِ، يَقُولُ الجَاحِظُ:"وكَلامٌ كَثِيرٌ جَرَى عَلَى أَلْسنَةِ النَّاسِ ولَهُ مَضَرَّةٌ شَدِيْدةٌ، وثَمَرَةٌ مُرَّةٌ، فَمِنْ أَضَرِّ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ:"لَمْ يَدَعْ اَلأَوَّلُ لِلآخِرِ شَيْئًا". فَلَو أَنَّ عُلَمَاءَ كُلِّ عَصْرٍ مُذْ جَرَتْ هَذِهِ اَلْكَلِمَةُ فِي أَسْمَاعِهِمْ تَرَكُوا الاسْتِنْبَاطَ لَمَّا لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْهِمْ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ، لَرَأَيْتَ اَلْعِلْمَ مُخْتَلًّا"[3].

والجاحظُ علامةٌ بارزةٌ في التُّراثِ العربيّ، وله إسهامٌ في فُروعِ المَعْرِفَةِ المُختلفةِ، ومَنَاشِطِ الفِكْرِ الإنسانيّ المتنوعةِ، لايسعُ أيُّ مُهتمٍّ بفرعٍ مِنْ فُرُوعِ المَعْرِفَةِ أَنْ يَنْأَى بنفْسِهِ عَنْ وَقْفَةٍ مَعَ تُرَاثِهِ وفِكْرِهِ، ومن هذه المناشط اللغة وتوظيفها في حياة الإنسان، وإبداعات الجاحظ وأوّليّاته في الفكر اللغوي، ودرس اللغة وتذوّقها، وإسهامه فيها، وهي – في الغالب – إبداعات لم يتطرّق لها أهل اللغة القدامى، وأهملها لغويو عصره، والتفت لها أبو بحر، ووسط هذا الركام الفكري العبقري آثرتُ اَلْوُقُوفَ عَلَى مَوْقِفِ اَلْجَاحِظِ من النَّحوِ والنُّحَاةِ وأقدمتُ عَلَى صِيَاغَةِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ، وقُمْتُ بِهَذَا اَلْبَحْثِ اللُّغَوِيِّ النَّحويّ،لأنَّ ذلك يتعلَّقُ بِعَالِمٍ كبيرٍ مِنْ عُلَمَائِنَا العَرَبِ الرُّوَّادِ المُبَرَّزين والمُؤَثِّرِينَ شَرْقًا وغَرْبًا، قَدِيمًا وحَدِيثًا. وَاعْتَمَدْتُ فِي هَذِهِ اَلدِّرَاسَةِ عَلَى مَا أَوْرَدَهُ الجَاحِظُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ، ثُمَّ ذَكَرْتُ مَا أَوْرَدَهُ النُّحَاةُ والعُلَمَاءُ فِي ذَاتِ الشَّأنِ، ثُمَّ ذَكَرْتُ رأيي مُعلِّقًا ومُرجِّحًا فِيْمَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ.

وَجَاءَ هَذَا اَلْبَحْثُ فِي مبحثينِ تَسْبِقُهما مُقَدِّمَةٌ وَتَمْهِيْدٌ، وَاخْتَتَمْتُ البَحْثَ بِخَاتِمَةٍ؛ ذَكَرْتُ فِيْهَا أَهَمَّ نَتَائِجِ هَذِهِ اَلدِّرَاسَةِ، وَذَلِكَ عَلَى النَّحْوِ الآتِي:

اَلْمُقَدِّمَةُ: ذَكَرْتُ فِيْهَا أَسْبَابَ اَلدِّرَاسَةِ وَأَهَمِّيَّتَهَا وَمَنْهَجَهَا وَأَهْدَافَهَا وَخُطَّتَهَا.

(١) الجاحظ، أبو عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، (٣/١)، والنويري، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ،(٧٣/٧).

(٢) الجاحظ، أبو عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ،(٢٧/١).

(٣) هذا الكلام نقله القزويني، مُحَمَّد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت،، ط٣،(٦/١)، والصعيدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥م،(٣٩/١). وهذا هو نهاية تلخيص الخطيب لكلام عبد القاهر في الدلائل(٢٢٥/١).

اَلتَّمْهِيْدُ: اَلْجَاحِظُ نَشْأَتُهُ وَمَكَانَتُهُ.

اَلْمَبْحَثُ اَلأَوَّلُ: (اَلْجَاحِظُ وَالنُّحَاةُ). وجاء في ثلاثة مطالب:

- اَلْمَطْلَبُ اَلأَوَّلُ: مَوْقِفُ اَلْجَاحِظُ مِنْ بَعْضِ اَلنُّحَاةِ.

- اَلْمَطْلَبُ اَلثَّانِي: مَوْقِفُ اَلْجَاحِظُ مِنْ مَنْهَجِ اَلنُّحَاةِ فِي أَخْذِ اَللُّغَةِ لِتَقْعِيْدِهَا.

- اَلْمَطْلَبُ اَلثَّالِثُ: عِنَايَةُ اَلْجَاحِظِ بِظَاهِرَةِ اَلإِعْرَابِ عِنْدَ اَلنُّحَاةِ.

اَلْمَبْحَثُ اَلثَّانِي: (آرَاءُ اَلْجَاحِظِ فِي بَعْضِ اَلْمَسَائِلِ اَللُّغَوِيَّةِ وَالنَّحْوِيَّةِ). وَجَاءَ فِي مَطْلَبَيْنِ:

- اَلْمَطْلَبُ اَلأَوَّلُ: فِي اَلْمَسَائِلِ اَللُّغَوِيَّةِ عِنْدَ اَلْجَاحِظِ.

- اَلْمَطْلَبُ اَلثَّانِي: فِي اَلْمَسَائِلِ اَلنَّحْوِيَّةِ عِنْدَ اَلْجَاحِظِ.

- اَلْمَطْلَبُ الثالثُ: مَسَائِلُ ذَاتُ صِلَةٍ باللُّغَةِ وَالنَّحْوِ.

الخَاتِمَةُ: وفِيْهَا أَهَمُّ نَتَائِجِ الدِّرَاسَةِ.

وَبَعْدُ، فَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ أَكُوْنَ قَدْ وُفِّقْتُ فِي هَذِه اَلدِّرَاسَةِ إلى تَقْدِيْمِ مَا يُفِيْدُ، وَأَنْ يَنْفَعَ سُبْحَانَهُ بِهَذِهِ اَلدِّرَاسَةِ مَنْ شَاء، وَأَنْ يَجْعَلَهَا لَبِنَةَ بِنَاءٍ فِي صَرْحِ مَكْتَبَةِ الدِّرَاسَاتِ النَّحْوِيَّةِ، وَاللهُ اَلمُوفِّقُ المُسْتَعَانُ.

اَلتَّمْهِيْدُ : اَلْجَاحِظُ نَشْأَتُهُ وَمَكَانَتُهُ [٤].

- اِسْمُهُ وَلَقَبُهُ: هُوَ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بِنُ بَحْرِ بِنُ محبوبِ الكِنَانِيُّ اللَّيْثِيُّ البَصْرِيُّ الفُقَيْمِيُّ وَلَاءً. كَانَ ثَمَّةَ نتوءٌ واضحٌ فِي حَدَقَتَيْهِ فَلُقِّبَ بِالحَدَقِيِّ، ولَكِنَّ اللَّقَبَ الَّذِي اِلْتَصَقَ بِهِ أَكْثر، وَبِهِ طَارَتْ شُهْرَتُهُ فِي اَلآفَاقِ هُوَ اَلْجَاحِظُ، وَقِيْلَ: لُقِّبَ بِالْجَاحِظِ لِجُحُوْظِ عَيْنَيْهِ.

- مَوْلِدُهُ وَنَشْأَتُهُ:

وُلِدَ اَلْجَاحِظُ فِي اَلْبَصْرَةِ فِي بِيْتٍ فَقِيْرٍ،سَنَةَ(١٥٩هـ)، حَيْثُ كَانَتْ وُلَادَتُهُ فِي خِلَافَةِ اَلْمَهْدِيِّ ثَالِثِ اَلْخُلَفَاءِ اَلْعَبَّاسِيِّينَ، وَمَاتَ أَبُوْهُ وَهُوَ صَغِيْرٌ، فَقَامَتْ عَلَى تَرْبِيَتِهِ أُمُّهُ. نَشَأَ اَلْجَاحِظُ مَيَّالاً لِلْعِلْمِ. فَطَلَبَ اَلْعِلْمَ فِي سِنٍّ مُبكّرةٍ، فَقَرَأَ اَلْقُرْآنَ وَمَبَادِئَ اَللُّغَةِ عَلَى شُيُوْخِ بَلَدِهِ، وَلَكِنَّ اَلْيُتْمَ وَالفَقْرَ حَالَ دُوْنَ تَفَرُّغِهِ لِطَلَبِ اَلْعِلْمِ، وَدَفَعَهُ عَوَزُهُ إِلَى اِمْتِهَانِ بَيْعِ اَلْخُبْزِ وَالسَّمَكِ بِنَهْرِ سَيْحَان بِالْبَصْرَةِ نَهَارًا وَاكْتِرَاءِ دَكَاكِيْنِ اَلوَرَّاقِيْنَ، يَبِيْتُ فِيْهَا لَيْلاً فَكَانَ يَقْرَأُ مِنْهَا مَا يَسْتَطِيْعُ قَرَاءَتَهُ. وَخَالَطَ المَسْجِدِيين، وَاخْتَلَفَ إِلَى اَلْكَتَاتِيْبِ، وَتَلَقَّى عَنْ اَلْعُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ وَالنُّحَاةِ وَالرُّوَاةِ وَاللُّغَوِيِّينَ اَلْعِلْمَ وَالأَدَبَ.

ثُمَّ تَرَكَ اَلْبَصْرَةَ إِلَى بَغْدَادَ عَاصِمَةِ اَلْخِلَافَةِ فِي أَوَائِلِ اَلْقَرْنِ اَلثَّالِثِ اَلْهِجْرِيِّ، وَتَابَعَ دَرْسَهُ هُنَاكَ فِي مَجَالِسِ أَعْلَامِ اَلْعُلَمَاءِ، فَأَخَذَ عُلُومَ اَللُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ وَآدَابَهَا عَلَى أَبِي عُبيدةَ صَاحِبِ عُيُونِ اَلأَخْبَارِ، والأَصْمَعِيِّ اَلرَّاوِيَة المشهورِ صَاحِبِ الأَصْمَعِيَّاتِ وَأَبِي زَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ، وَدَرَسَ النَّحْوَ عَلَى اَلأَخْفَشِ، وَالْمَنْطِقَ وَعِلْمَ اَلْكَلَامِ عَلَى يَدِ إِبْرَاهِيمَ بِنِ سيَّارِ بن هانئ النَّظَّامِ البَصْرِيِّ. وَكَانَ مُتَّصِلًا - بِالإِضَافَةِ لِاتِّصَالِهِ بِالثَّقَافَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ - بالثَّقَافَاتِ غَيْرِ اَلْعَرَبِيَّةِ؛ كَالفَارِسِيَّةِ وَاليُونَانِيَّةِ والْهِنْدِيَّةِ، عَنْ طَرِيْقِ قِرَاءَةِ أَعْمَالٍ مُترجَمَةٍ أَوْ مُنَاقَشَةِ اَلْمُتَرْجِمِيْنَ أَنْفُسِهِمْ، كَحُنَيْنِ بنِ إسحقَ وسَلَمَوَيْهِ.

بَدَأَ اَلْجَاحِظُ بِالتَّأْلِيْفِ ثُمَّ اِتَّصَلَ بِالْوَزِيْرِ اَلأَدِيْبِ مُحَمَّدِ بِنِ عَبْدِ اَلْمَلِكِ الزَّيَّاتِ وَصَاحَبَهُ، وَأَهْدَاهُ كِتَابَ (اَلْحَيَوَانِ)، وَلَمَّا فَتَكَ اَلْمُتَوَكِّلُ بِابْنِ الزَّيَّاتِ تَوَارَى اَلْجَاحِظُ عَنْ الأَنْظَارِ؛ خَوْفًا مِنْ اِبْنِ أَبِي دُؤَادٍ قَاضِي اَلْمُتَوَكِّلِ اَلَّذِي كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ اِبْنِ الزَّيَّاتِ، وَعَفَى عَنْهُ اِبْنُ أَبِي دُؤَادٍ بَعْدَمَا قَبَضَ عَلَيْهِ، فَلَازَمَهُ اَلْجَاحِظُ وَأَهْدَاهُ كِتَابَهُ (اَلْبَيَانَ وَالتَّبيينَ)، ثُمَّ اِتَّصَلَ بِالفَتْحِ بِنِ خَاقَانَ بِعْدَ عَزْلِ اَلْمُتَوَكِّلِ لِابْنِ أَبِي دُؤَادٍ.

وَبَعْدَ أَنْ آنَسَ مِنْ نَفْسِهِ اَلْقُدْرَةَ عَلَى ، رَاحَ يُرَوِّضُ قَلَمَهُ، فَكَتَبَ فِي بَعْضِ أَبْوَابِ اَلأَدَبِ وَنَشَرَ كُتَابَاتِهِ مَنْسُوْبَةً إِلَى أَعْلَامِ اَلْكُتَّابِ السَّابِقِيْنَ وَالْمُعَاصِرِيْنَ لَهُ؛ كَابْنِ اَلْمُقَفَّعِ

(٤) تُنْظَرُ تَرْجَمَتُهُ فِي: الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، نُزْهَةِ اَلأَلِبَّاءِ فِي طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن،ط٣، ١٩٨٥م،(ص١٤٨)، وابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٧م،(ص١٤٨)، والذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٣، ١٩٨٥م،(٥٢٦/١١-٥٣١) والزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م، (٧٤/٥)، وحاجري، محمد طه، الجاحظ حياته وأثره، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م. وغيرها.

وَسَهْلِ بِنِ هَارُونَ. وَوَجَدَ فِي تَقَبُّلِ النَّاسِ لِهَذِهِ اَلْكُتُبِ اَلْمَنْسُوْبَةِ إِلَى أُوْلَئِكَ اَلْكُتَّابِ عَلَامَةً عَلَى اِمْتِلَاكِهِ نَاصِيَةَ اَلْكِتَابَةِ، فَأَصْبَحَ يَنْشُرُ كُتُبَهُ وَرَسَائِلَهُ مُعْلِنًا أَنَّهُ مُؤَلِّفُهَا. وَكَانَ مِنْ تِلْكَ اَلْكُتُبِ اَلْمُبْكِرَةِ كِتَابٌ فِي اَلإِمَامَةِ، قَرَأَهُ اَلْمَأْمُوْنُ، فَاسْتَدْعَاهُ وَنَصَّبَهُ رَئِيْسًا لِدِيْوَانِ اَلرَّسَائِلِ، لَكِنَّهُ اُسْتُعْفِيَ مِنْ عَمَلِهِ هَذَا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَأُعْفِيَ. وَبَعْدَ وَفَاةِ اَلْمَأْمُوْنِ لَازَمَ اَلْجَاحِظُ وَزِيْرَ اَلْمُعْتَصِمِ، مُحَمَّدَ بنِ عَبْدِ اَلْمَلِكِ الزَّيَّاتِ. فَعَاشَ فِي كَنَفِهِ رَضِيَّ اَلْبَالِ يُنْفِقُ عَنْ سِعَةٍ، وَيَنْصَرِفُ إِلَى التَّأْلِيْفِ، وَيَرْحَلُ إِنْ شَاءَ. فَرَحَلَ إِلَى دِمَشْقَ وَأَنْطَاكِيَةَ. وَاهْتَمَّ اَلْجَاحِظُ إِلَى جَانِبِ اَللُّغَةِ وَالشِّعْرِ بِالْبَحْثِ فِي طَبَائِعِ اَلْحَيَوَانِ وَغَرَائِزِهِ وَأَحْوَالِهِ وَعَادَاتِهِ. وَلِأَنَّ اَلْجَاحِظَ كَانَ غَزِيْرَ اَلْعِلْمِ، مُسْتَوْعِبًا لِثَقَافَاتِ عَصْرِهِ، فَقَدْ كَانَتْ مَرَاجِعُهُ فِي كُتُبِهِ تَمْتَدُّ لِتَشْمَلَ اَلْقُرْآنَ اَلْكَرِيْمَ وَالْحَدِيْثَ النَّبَوِيَّ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيْلَ، وَأَقْوَالَ اَلْحُكَمَاءِ وَالشُّعَرَاءِ، وَعُلُوْمَ اَلْيُوْنَانِ وَأَدَبَ فَارِسٍ وَحِكْمَةَ اَلْهِنْدِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى تَجَارِبِهِ اَلْعِلْمِيَّةِ وَمُشَاهَدَاتِهِ وَمُلَاحَظَاتِهِ اَلْخَاصَّةِ.

● مَكَانَتُهُ اَلْعِلْمِيَّةُ:

إِنَّ اَلْجَاحِظَ أَدِيْبٌ عَرَبِيٌّ مِنْ كِبَارِ أَئِمَّةِ اَلأَدَبِ فِي اَلْعَصْرِ اَلْعَبَّاسِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَشْهَرِ أُدَبَاءِ اَلْقَرْنَيْنِ الثَّانِي والثَّالِثِ اَلْهِجْرِيِينِ وَأَوْسَعُهُمْ ثَقَافَةً، وَكَانَ لُغَوِيًّا نَحْوِيًّا بَارِعًا.

وَقَدْ جَمَعَ اَلْجَاحِظُ بَيْنَ اَلْعِلْمِ وَالأَدَبِ، فَكَانَ مُلِمًّا بِجَمِيْعِ مَعَارِفِ عَصْرِهِ؛ مَنْ لُغَةٍ وَشِعْرٍ وَأَخْبَارٍ وَعِلْمِ كَلَامٍ وَتَفْسِيْرٍ وَطَبِيْعَةٍ، وَقَدْ كَانَ كَاتِبًا مُتَكَلِّمًا مُعْتَزِلِيًّا، بَلْ كَانَ رَأْسَ طَائِفَةٍ مِنْ اَلْمُعْتَزِلَةِ عُرِفَتْ بِالْجَاحِظِيَّةِ نِسْبَةً إِلَيْهِ، وَكَانَ نَاقِدًا اِجْتِمَاعِيًّا عَارِفًا بِخَفَايَا مُجْتَمَعِهِ وَطَبَقَاتِهِ وَفِئَاتِهِ. وَتُعَدُّ كُتُبُهُ وَرَسَائِلُهُ وَثَائِقَ يُمْكِنُ اَلاعْتِمَادُ عَلَيْهَا فِي مَعْرِفَةِ جَوَانِبِ اَلْمُجْتَمَعِ فِي عَصْرِهِ. وَكَانَ زَادُهُ فِي كُلِّ هَذَا مَعْرِفَتُهُ اَلْوَاسِعَةَ وَمُلَاحَظَتُهُ اَلْفَاحِصَةَ وَالتَّجْرُبَةَ أَحْيَانًا، مِمَّا يُقَرِّبُهُ مِنْ اَلْمَنْهَجِيَّةِ اَلْعِلْمِيَّةِ، فَقَدْ اُشْتُهِرَ بِالشَّكِّ بِوَصْفِهِ اَلطَّرِيْقِ إِلَى اَلْيَقِيْنِ، وَبِفُضُوْلِهِ اَلْمَعْرِفِيِّ، وَبِتَجْرِبَتِهِ لِفُرُوْضِهِ. عُرِفَ أُسْلُوْبُهُ بِإِيْقَاعِيَّتِهِ وَقِصَرِ عِبَارَاتِهِ وَاسْتِطْرَادَاتِه، مَعَ رُوْحٍ سَاخِرَةٍ، سَخِرَتْ مِنْ كُلِّ أَشْكَالِ اَلْقُبْحِ فِي عَصْرِهِ؛ حِسِّيًا كَانَ أَوْ مَعْنَوِيًّا. وَأُوْتِيَ مَقْدِرَةً بَيَانِيَّةً مَكَّنَتْهُ مِنْ مَدْحِ اَلشَّيْءِ وَذَمِّـهِ.

وَيَرَى مُؤَرِّخُو اَلْبَلَاغَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مُؤَسِّسُ اَلدَّرْسِ اَلْبَلَاغِيِّ؛ بِمَا عَالَجَهُ مِنْ مَوْضُوْعَاتِهِ وَأَرْسَاهُ مِنْ مُصْطَلَحَاتِهِ.

قَالَ أَبُو هِلَالٍ اَلْعَسْكَرِيِّ عَنْ كُتُبِ اَلْجَاحِظِ وَالْبَلَاغَةِ وَالأَدَبِ:"وَكَانَ أَكْبَرُهَا وَأَشْهَرُهَا كِتَابُ اَلْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ لِأَبِي عُثْمَانَ عَمْرُو بِنِ بَحْرِ اَلْجَاحِظِ، وَهُوَ لَعَمْرِي كَثِيْرُ اَلْفَوَائِدِ، جَمُّ اَلْمَنَافِعِ؛ لِمَا اِشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ اَلْفُصُوْلِ اَلشَّرِيْفَةِ، وَالْفِقَرِ اَللَّطِيْفَةِ، وَالْخُطَبِ الرَّائِعَةِ، وَالأَخْبَارِ البَارِعَةِ، وَمَا حَوَاهُ مِنْ أَسْمَاءِ اَلْخُطَبَاءِ وَالْبُلَغَاءِ، وَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ مِنْ مَقَادِيْرِهِمْ فِي اَلْبَلَاغَةِ وَالْخَطَابَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فُنُوْنِهِ اِلْمُخْتَارَةِ وَنُعُوْتِهِ اَلْمُسْتَحْسَنَةِ".[٥]

وَقَالَ اِبْنُ رَشِيْقٍ اَلْقَيْرَوَانِيُّ:" وَقَدْ اِسْتَفْرَغَ أَبُوْعُثْمَانَ اَلْجَاحِظُ - وَهُوَ عَلَّامَةُ وَقْتِهِ - اَلْجُهْدَ، وَصَنَعَ كِتَابًا لَا يُبْلَغُ جَوْدَةً وَفَضْلاً".[٦] وَقَالَ اِبْنُ خَلْدُوْن عَنْ اَلأَدَبِ:"وَسَمِعْنَا مِنْ شُيُوْخِنَا فِي مَجَالِسِ اَلتَّعْلِيْمِ أَنَّ أُصُولَ هَذَا الفنّ وأركانَهُ أَرْبَعَةُ دَوَاوِيْنَ؛وهِيَ: أَدَبُ اَلْكَاتِبِ لِابنِ قُتيبةَ، وَكِتَابُ اَلْكَامِلِ للمُبَرِّدِ، وكِتَابُ اَلْبَيَانِ والتَّبيينِ لِلْجَاحِظِ، وكِتَابُ النَّوَادِرِ لِأَبِي عَلِيٍّ القَالِي البَغْدَادِيِّ. وَمَا سِوَى هَذِهِ اَلأَرْبَعَةِ فتَبَعٌ لَهَا وَفُرُوْعٌ عَنْهَا"[٧].

ولا يعني ما سبق أنّ الجاحظ لم يتعرَّض للنقد، فقد نالته سهام النقد أيضًا، يَقُوْلُ أَحْمَدُ أَمِيْن في ضحى الإسلام عن كتاب البيان والتبيين: فَكُلُّ فَصْلٍ مِنْ اَلْفُصُوْلِ فَوْضَى لَا تُضْبَطُ، وَاسْتِطْرَادٌ لَا يُحَدُّ...والحقُّ أَنَّ اَلْجَاحِظَ مَسْئُولٌ عَنْ اَلْفَوْضَى اَلَّتِي تَسُوْدُ كُتُبَ اَلأَدَبِ اَلْعَرَبِيِّ، فَقَدْ جَرَتْ عَلَى مِنْوَالِهِ، وَحَذَتْ حَذْوَهُ، فَالْمُبَرِّدُ تَأَثَّرَ بِهِ فِي تَأْلِيْفِهِ، وَالْكُتُبُ اَلَّتِي أُلِّفَتْ بَعْدُ؛ كَعُيُوْنِ اَلأَخْبَارِ وَالْعِقْدِ اَلْفَرِيْدِ، فِيهَا شَيْءٌ مِنْ رُوْحِ اَلْجَاحِظِ، وَإِنْ دَخَلَهَا شَيْءٌ مِنَ اَلتَّرْتِيْبِ وَالتَّبْوِيْبِ.. وَالْجَاحِظُ مَسْئُولٌ عَمَّا جَاءَ فِي اَلْكُتُبِ بَعْدَهُ مِنْ نَقْصٍ وَعَيْبٍ؛ لأَنَّ اَلْبَيَانَ وَالتَّبيينَ أَوَّلُ كِتَابٍ أُلِّفَ فِي اَلأَدَبِ عَلَى هَذَا اَلنَّحْوِ وأَثَّرَ فِيْمَنْ جَاءُوا بَعْدَهُ... وَأَوْضَحُ شَيْءٍ مِنْ آثَارِ اَلْجَاحِظِ فِي كُتُبِ اَلأَدَبِ إِذَا قُوْرِنَتْ بِالْعُلُوْمِ اَلأُخْرَى اَلْفَوْضَى وَالْمِزَاحُ وَمُجُوْنٌ يَصِلُ إِلَى اَلْفُحْشِ أَحْيَانًا. ولكنَّي أَرَي أَنَّ فِي هَذَا اَلرَّأْيِ تَحَامُلًا غَيْرَ مَقْبُوْلٍ، وَمَدْحًا بِطَعْمِ اَلذَّمِّ! وَكَانَ اَلأَوْلَى أَنْ يُوَجَّهَ اَللَّوْمُ وَالنَّقْدُ بِنَصِيْبٍ أَوْفَرَ لِلَّذِيْنَ اِتَّبَعُوا اَلْجَاحِظَ وقلَّدوه فِيْمَا سمَّاه أحمد

(٥) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت،١٤١٩هـ، ص٥.

(٦) القيراوني، أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م، (٢٥٧/١).

(٧) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة،١٩٦٥م،(٣٠٦/٢).

أمين الفَوْضَى! فَالجَاحِظُ – رَحِمَهُ اللهُ – قَدَّم فِكْرًا وأدبًا وعلمًا وأسلوبًا ومنهجًا وجهدًا يُشكرُ ولا يُنكرُ، فإنْ كان بهذا القدرِ من الفوضى الواضحة لَمَا اتَّبعَهُ كثيرٌ مِنْ الأُدَبَاءِ والعُلماءِ على هَذَا النَّحْو الوَاضِح، فالتَّسليمُ المُطلقُ بِهَذَا الرَّأْيِ يُؤَدِّي بِنَا إِلَى تَسْفِيْهِ عُقُوْلِ ثُلَّةٍ كبيرةٍ مِنْ العُلَمَاءِ والأُدَبَاءِ العَرَبِ!

وَيَبْدُو أَنَّ عَدَمَ ثِقَةِ اَلْجَاحِظِ فِي اَلْقُرَّاءِ عَلَى وَجْهِ اَلْعُمُوْمِ كَانَتْ سَبَباً فِي سُلُوكِهِ هَذَا اَلسَّبِيْلِ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ، هَذَا السُّلُوكُ اَلَّذِي يبدو كأَنَّهُ فَوْضَى... فهو يقولُ:" وَلَوْلَا سُوْءُ ظَنِّي بِمَنْ يُظْهِرُ اِلْتِمَاسَ اَلْعِلْمِ فِي هَذَا اَلزَّمَانِ وَيَذْكُرُ اِصْطِنَاعَ اَلْكُتُبِ فِي هَذَا اَلدَّهْرِ لَمَا اِحْتَجْتُ فِي مُدَارَاتِهِمْ وَاسْتِمَالَتِهِمْ وَتَرْقِيْقِ نُفُوْسِهِمْ وَتَشْجِيْعِ قُلُوبِهِمْ، مَعَ كَثْرَةِ فَوَائِدِ هَذَا اَلْكِتَابِ؛ إِلَى هَذِهِ الرِّيَاضَةِ الطَّوِيلَةِ، وَإِلَى كَثْرَةِ هَذَا اَلاعْتِذَارِ، حتَّى كَأَنَّ اَلَّذِي أُفِيدُه إِيَّاهُم أستفيدُهُ مِنْهُمْ، وحتَّى كَأَنَّ رَغْبَتِي فِي صَلَاحِهِمْ رَغْبَةُ مَنْ رَغِبَ فِي دُنْيَاهُمْ"[٨].

وَالأُسْلُوبُ أَحَدُ اَلْمُمَيِّزَاتِ الكُبْرَى اَلَّتِي تَمَتَّعَ بِهَا اَلْجَاحِظُ، فَهُوَ سَهْلٌ وَاضِحٌ، فِيْهِ عُذُوْبَةٌ وفَكَاهَةٌ وَاسْتِطْرَادٌ بِلا مَلَلٍ، وَفِيْهِ مَوْسُوعِيَّةٌ ونَظَرٌ ثَاقِبٌ وإِيمانٌ بِالعَقْلِ لا يتزَعْزَعُ. والجَاحِظُ بِهَذَا اَلْفِكرِ اَلَّذِي يُعْلِي مِنْ شَأْنِ اَلْعَقْلِ، وَهَذِهِ الثَّقَافَةِ المُتنوِّعَةِ الجَامِعَةِ، وَهَذَا اَلْعُمْرِ المَدِيْدِ بِمَا يُعْطِيْهِ لِلْمَرْءِ مِنْ خِبْرَاتٍ وَتَجَارُبَ، وَهَذَا اَلأُسْلُوبُ اَلْمُمَيَّزُ اِسْتِحَقَّ مَكَانَهُ المُتَمَيِّزَ فِي تَارِيْخِ الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ بِمَا لَهُ مِنْ تَأْثِيْرٍ وَاضِحٍ قَوِيٍّ فِي كُلِّ مَنْ جَاءُوا بَعْدَهُ.

وَصَفْوَةُ اَلْقَوْلِ: أَنَّ أَبَا عُثْمَانَ اَلْجَاحِظَ،" خَطِيْبُ اَلْمُسلِمِينَ، وَشَيْخُ اَلْمُتكلِّمِينَ، وَمَدْرَتهُ اَلْمُتقدِّمين والمُتَأَخِّرِينَ، إِنْ تكلَّم حَكَى سُحْبَانَ فِي اَلبَلاغَةِ، وإِنْ نَاظَرَ ضَارَعَ اَلنَّظَّامَ فِي الجِدَالِ، وإِنْ جَدَّ خَرَجَ فِي مِسْكِ عَامِرِ بنِ عبد قيس، وإِنْ هَزَلَ زَادَ عَلَى مَزِيْدِ حبيبِ القُلُوبِ ومَزَاجِ الأَرْوَاحِ، وشَيْخُ الأدبِ ولِسَانِ العَرَبِ. كُتُبُهُ رِيَاضٌ زَاهِرَةٌ، وَرَسَائِلُهُ أَفْنَانٌ مُثْمِرَةٌ، مَا نَازَعَهُ مُنَازِعٌ إِلَّا رَشَاهُ آنِفاً، وَلَا تَعَرَّضَ لَهُ مَنْقُوْصٌ إِلَّا قَدَّمَ لَهُ اَلتَّوَاضُعَ اَسْتِبْقَاءً. اَلْخُلَفَاءُ تَعْرِفُهُ، وَالأُمَرَاءُ تُصَافِيْهِ وَتُنَادِمُهُ، وَالْعُلَمَاءُ تَأْخُذُ عَنْهُ، وَالخَاصَّةُ تُسَلِّمُ لَهُ، والعَامَّةُ تُحِبُّهُ، جَمَعَ بَيْنَ اللِّسَانِ وَالْقَلَمِ، وَبَيْنَ اَلْفِطْنَةِ والْعِلْمِ، وبَيْنَ الرَّأْيِ وَالأَدَبِ، وبَيْنَ التَّثْرِ وَالنَّظْمِ، وَبَيْنَ الذَّكَاءِ والفَهْمِ، طَالَ عُمْرُهُ، وَفَشَتْ حِكْمَتُهُ، وَظَهَرَتْ خِلَّتُهُ، وَوَطِئَ اَلرِّجَالُ عَقِبَهُ، وَتَهَادُوا أَدَبَهُ، وَافْتَخَرُوا بِالانْتِسَابِ إِلَيْهِ، وَنَجَحُوا بِالإِقْتِدَاءِ بِهِ، لَقَدْ أُوْتِيَ اَلْحِكْمَةُ وَفَصْلُ اَلْخِطَابِ"[٩].

● آثَارُهُ وَمُؤَلَّفَاتُهُ :

تَرَكَ اَلْجَاحِظُ كُتُباً كَثِيْرَةً يَصْعُبُ حَصْرُهَا، قِيْلَ: زَادَتْ عَنْ مَائَتَيِ كِتَابٍ، وَقِيْلَ: حَوَالِي ٣٦٠ كتابًا، ذكر لَهُ اَبْنُ النَّدِيمِ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ مُصنَّفًا، فَقَدْ كان الجاحظُ موسوعةً تَمْشِي عَلَى قَدَمَيْنِ، وتُعتبرُ كُتُبُهُ دائرةَ معارفٍ لِزَمَانِهِ، كُتُبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ تقريبًا؛ كُتُبُ فِي عِلْمِ الكَلَامِ والأَدَبِ والسِّياسَةِ والتَّاريخِ والأَخْلاقِ والنَّبَاتِ والحَيَوَانِ والصِّنَاعَةِ والنِّسَاءِ والسُّلْطَانِ والجُنْدِ والقُضَاةِ والْوُلَاةِ والْمُعلِّمِينَ واللُّصُوصِ والإِمَامَةِ والْحَوَلِ والعَوَرِ، وَصِفَاتِ اللهِ والقِيَانِ والهِجَاءِ. وَمِنْ أَهَمِّ كُتُبِهِ:أَخْلاقُ الشُّطَّارِ. أَخْلاقُ الْمُلُوكِ. اَلْبَيَانُ والتَّبيينُ. تَحْصِيْنُ الأَمْوَالِ. جَوَابَاتُ كِتَابِ الْمَعْرِفَةِ. حَانُوتُ عَطَّارٍ. اَلرَّدُّ عَلَى أَصْحَابِ الإِلْهَامِ. اَلرَّدُّ عَلَى الْمُشَبِّهَةِ. رَدُّ النَّصَارَى. رِسَالَةٌ فِي الْحَسَدِ. سِحْرُ الْبَيَانِ. سَلْوَةُ الْخَرِيْفِ بِمُنَاظَرَةِ الرَّبِيْعِ والْخَرِيْفِ. عَنَاصِرُ الأَدَبِ. فَضِيْلَةُ الْمُعْتَزِلَةِ. كِتَابُ آيِ الْقُرْآنِ. كِتَابُ الإِبِلِ. كُتُبُ الأَخْبَارِ. كِتَابُ الإِخْوَانِ. كِتَابُ الاسْتِبْدَادِ والْمُشَاوَرَةِ فِي الْحُرُوْبِ. كُتُبُ الاسْتطاعَةِ. كِتَابُ الأَصْنَامِ. كِتَابُ الاعتزالِ. كِتَابُ الإِمَامَةِ. كِتَابُ الأَمْثَالِ. كِتَابُ الأَمْصَارِ. كِتَابُ الأُنْسِ وَالسَّكَنِ. كِتَابُ الْبُخَلَاءِ. كِتَابُ الْبَغْلِ. كُتُبُ الْبُلدانِ. كِتَابُ النَّبِيِّ والْمُتنبي. كتابُ التَّربيعِ. كتابُ التَّسويةِ بَيْنَ العَرَبِ والعَجَمِ. كتابُ التَّعبيرِ. كتابُ التَّفكُّرِ والاعْتِبَارِ. كِتَابُ الجَوَارِي. كِتَابُ الحَجَرِ وَالْفَتْوَةِ. كِتَابُ الْحَزْمِ والجَزْمِ. كِتَابُ الْحَيَوَانِ. كِتَابُ الْخِطَابُ فِي التَّوحيدِ. كِتَابُ الدَّلَّالِ. كِتَابُ السُّلْطَانِ. كِتَابُ السُّلُوكِ. كِتَابُ السُّوْدَانِ. كِتَابُ الشَّارِبِ والمَشْرُوْبِ. كِتَابُ الصُّرَحَاءِ والهُجَنَاءِ. كِتَابُ صِنَاعَةِ الْكَلَامِ. كِتَابُ الصَّوْلَجَانِ. كِتَابُ الطَّبَائِعِ. كِتَابُ الطُّفَيْلِيِّينَ. كِتَابُ الْعُثْمَانِيَّةِ. كِتَابُ الْعُرْسِ وَالْعَرَائِسِ. كِتَابُ الْفِتْيَانِ. كِتَابُ الْفَخْرِ بِيْنَ عَبْد شَمْسٍ وَبَنِي مَخْزُوْمٍ. كِتَابُ فَخْرُ الْقَحْطَانِيَّةِ وَالْعَدْنَانِيَّةِ. كِتَابُ اللُّصُوصِ. كِتَابُ الْمَحَاسِنِ وَالأَضْدَادِ. كِتَابُ الْمِزَاحِ والجَدِّ. كِتَابُ الْمَعْرِفَةِ.

(٨) الحيوان ،(١٥٥/٥).

(٩) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط١، ١٩٩٣م، (٥/ ٢١١٣).

كِتَابُ اَلْمُعَلِّمِيْنَ. كِتَابُ اَلْمُغَيِّنَ. كِتَابُ مَنَاقِبِ ضِدِّ اَلْخَلَافَةِ وَفَضَائِلِ اَلأَتْرَاكِ. كِتَابُ اَلتَّاشِئِ وَاَلْمُتَلَاشِي. كِتَابُ التَّجْمِ وَجَوَابُهُ. كِتَابُ النَّرْدِ والشَّطَرَنْج. كِتَابُ اَلنِّسَاءِ. كِتَابُ اَلْوَعِيْدِ. كِتَابُ اَلْوُكَلَاءِ وَالْمُتَوَكِّلِيْنَ. كِتَابُ اَلْهَدَايَا. مَسَائِلُ اَلْقُرْآنِ. مَسَائِلُ كِتَابِ اَلْمَعْرِفَةِ. مَعَانِي اَلْقُرْآنِ. مَقَالَةٌ فِي أُصُولِ اَلدِّينِ. نَظْمُ اِلْقُرْآنِ. نَقْضُ اَلطِّبِّ. نَوَادِرُ اِلْجِنِّ، وَغَيْرُهَا[10].

وَيُذْكَرُ فِي هَذَا اَلشَّأْنِ أَنَّ: عبد الله بن حمود،أبو مُحَمَّد الزُّبيديُّ الأندلسيُّ، قالَ الصَّفدِي: كانَ مِنْ فُرْسَانِ النَّحْوِ واللُّغَةِ والشِّعرِ، لَازَمَ السِّيرَافِي والفَارِسِي والقَالِي. وكَانَ مُغْرَى بِكَلَامِ اَلْجَاحِظِ؛ وَكَانَ يَقولُ: رَضَيْتُ فِي اَلْجَنَّةِ بِكُتُبِ اَلْجَاحِظِ عِوَضاً عنْ نَعِيْمِهَا![11].

- **وَفَاتُهُ :** أُصِيْبَ اَلْجَاحِظُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ بِالفَالِجِ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ اَلْمَرَضُ، قَالَ اَلْمُبَرِّدُ: دَخَلْتُ عَلَى اَلْجَاحِظِ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ وَهُوَ عَلِيْلٌ، فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: كَيْفَ يَكُوْنُ مَنْ نِصْفُهُ مَفْلُوْجٌ وَلَوْ نُشِرَ بِالمَنَاشِيْرِ لِمَا أَحَسَّ بِهِ، وَنِصْفُهُ اَلآخَرُ مُنْقَرِسٌ لَوْ طَارَ الذُّبَابُ بِقُرْبِهِ لِآلَمَهُ، وَالأَمْرُ فِي ذَلِكَ أَنِّي جُزْتُ التِّسْعِيْنَ[12]، وَأَنْشَدَنَا:

أَتَرْجُو أَنْ تَكُوْنَ وَأَنْتَ شَيْخٌ كَمَا قَدْ كُنْتَ أَيَّامَ اَلشَّبَابِ

لَقَدْ كَذَبَتْكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ثَوْبٌ دَرِيْسٌ كَالْجَدِيْدِ مِنْ اَلثِّيَابِ

وَكَانَتْ وَفَاتُهُ – رَحِمَهُ اللهُ - فِي خِلَافَةِ اَلْمُهْتَدِي بِاللهِ، وَقِيْلَ: فِي خِلَافَةِ اَلْمُعْتَزِّ بِاللهِ، فَعَاصَرَ بِذَلِكَ اِثْنَى عَشَرَ خَلِيْفَةً عَبَاسِيًّا هُمْ: اَلْمَهْدِيُّ والهَادِي والرَّشِيدُ والأمينُ والمَأْمُونُ واَلْمُعْتَصِمُ والوَاثِقُ والمُتَوَكِّلُ واَلْمُنْتَصِرُ وَالْمُسْتَعِيْنُ وَالْمُعْتَزُّ والمُهْتَدِي بِاللهِ، وعَاشَ اَلْقَرْنَ اَلَّذِي كَانَتْ فِيْهِ اَلثَّقَافَةُ العَرَبِيَّةُ فِي ذُرْوَةِ اِزْدِهَارِهَا. وَتُوُفِّيَ فِي اَلْبَصْرَةِ وَدُفِنَ بِهَا فِي شَهْرِ اَلْمُحَرَّمِ عَامَ (٢٥٥هـ/٨٦٩م) في عهد المعتز بالله، بعد أنْ جَاوَزَ التِّسعينَ مِنْ عُمْرِهِ. وَقِيْلَ فِي مَوْتِهِ: إنَّهُ تُوفِّي بوقُوعِ مُجلَّداتِ الكُتُبِ عليه، إذ اعتادَ أنْ يصفَّ كُتبَهُ قائمَةً مُحيطةً به ويجلسُ عليها، وكان عليلًا فَسَقَطَتْ عليه فماتَ. والله أعلم.

اَلْمَبْحَثُ اَلأَوَّلُ: اَلْجَاحِظُ وَالنُّحَاةُ.

- **تَوْطِئَةٌ :**

لَقَدْ رَأَيْنَا فِيْمَا سَبَقَ كَيْفَ أَنَّ اَلْجَاحِظَ قَدْ كَتَبَ فِي مَجَالاتٍ وأشياءَ كثيرةٍ، فَقَدْ اِهْتَمَّ بِكُلِّ مَا حَوْلَهُ مِنْ عُلُومٍ وبيئةٍ وغير ذلك، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقِفَ عَلَى مَوْقِفِهِ مِنْ اَلنَّحْوِ وَالنُّحَاةِ؛ خَاصَّة أَنَّنَا لَمْ نَعْثُرْ عَلَى كِتَابٍ خَصَّصَهُ اَلْجَاحِظُ فِي النَّحْوِ؛ لِدِرَاسَةِ مَسَائِلِهِ، وَقَدْ كَانَ النَّحو فِي عَصْرِهِ فِي طَوْرِ النُّضْجِ والبِنَاءِ والحَرَاكِ الفِكْرِي، فَلَقَدْ عَاشَ اَلْجَاحِظَ فِي عَصْرِ اَلاسْتِشْهَادِ النَّحْوِي، فَحَيَّرَنِي هَذَا التَّصَرُّفُ مِنْ اَلْجَاحِظِ، ذَاكَ اَلْعَالِمُ اَلكَبِيرُ مَعَ ذَاكَ اَلْعِلْمِ المُهِمِّ أَبِي اَلعُلُومِ العَرَبِيَّةِ كما يُقالُ مِلْحِ العربيَّة، لكنَّ المطَّلعَ على بَعْضٍ مِنْ كُتُبِ اَلْجَاحِظِ يَلْحَظُ اِهْتِمَامَهُ بِالنَّحْوِ والنُّحَاةِ، لِمَا لِعِلْمِ النَّحْوِ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ عَظِيْمَةٍ عِنْدَ العَرَبِ مُتكلِّمينَ وعُلَمَاءَ فِي شَتَّى اَلْعُلُوْمِ اَلْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ لَفَتَ اِنْتِبَاهِي بَعْضُ اَلْقَضَايَا اَلَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَذَا الشَّأْنِ متناثرة في ثنايا بعض مؤلفاته التي وصلت إلينا، ولعلَّهُ خَصَّصَ كُتُبًا فِي النَّحوِ لكنَّهَا لَمْ تَصِلْ إلينا ككثيرٍ مِنْ كُنُوْزِ تُرَاثِنَا العَرَبِيِّ.

وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ اَلْقَضَايَا أَوْ اَلْمَسَائِلِ ذَاتِ الصِّلَةِ بِعِلْمِ النَّحْوِ العَرَبِيِّ والنُّحَاةِ اَلَّتِي أَرَدْتُ اَلْوُقُوْفَ عَلَيْهَا مَا يَأْتِي:

اَلْمَطْلَبُ الأَوَّلُ: مَوْقِفُ اَلْجَاحِظُ مِنْ بَعْضِ اَلنُّحَاةِ:

لَقَدْ تَبَايِنَ مَوْقِفُ اَلْجَاحِظُ مِنْ اَلنُّحَاةِ، بَيْدَ أَنَّهُ اتَّسَمَ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ بِالاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيْرِ، وتَقْدِيْرِ جُهُوْدِهِمْ وَحِرْصِهِمْ عَلَى خِدْمَةِ العَرَبِيَّةِ لُغَةِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ، فَلَمْ يَسْخَرْ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ عِلْمِهِمْ، وَهُوَ مَنْ هُوَ فِي السُّخْرِيَةِ وَالْهِجَاءِ، حَتَّى نَالَ مِنْ نَفْسِهِ فِي هَذَا اَلشَّأْنِ، فَلَمْ يَسْلَمْ وَجْهُهُ مِنْ لِسَانِهِ أَوْ قَلَمِهِ!!

أَمَّا مَوْقِفُهُ مِنْ النُّحَاةِ فَمُخْتَلِفٌ جِدًّا، وَاَلأَمْثِلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيْرَةٌ أَوْرِدُ بَعْضَهَا، عَلَى اَلنَّحْوِ اَلآتِي:

(١٠) ينظر: الفهرست، (ص ٢٩٤-٢٩٥)، والبغدادي، اسماعيل بن مُحَمَّد أمين، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (٨٠٢/١)، والسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان،(١/ ٤٨٥)، الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق:أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى،دار إحياء التراث، بيروت،٢٠٠٠م، (٥/ ٣٨٣).

(١١) ينظر: الوافي بالوفيات،(٣٨٣/٥)، وبغية الوعاة (٤١/٢).

(١٢) سير أعلام النبلاء، (١٣٥/٢٢).

(١) مَوْقِفُهُ مِنْ أَبِي الأَسْوَدِ (ت٦٩هـ):

أَبُو اَلأَسْوَدِ اَلدُّؤَلِي (ت٦٩هـ) وَاضِعُ عِلْمِ النَّحْوِ بِإِيعَازٍ مِنْ اَلإِمَامِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ فِي أَشْهَرِ اَلرِّوَايَاتِ[١٣]، وَهُوَ مِنْ النَّحْوِيِّيْنَ اَلَّذِيْنَ ذَكَرَهُمْ اَلْجَاحِظُ فِي كُتُبِهِ، حَيْثُ يَقُوْلُ اَلْجَاحِظُ:"وَكَانَ أَبُو اَلأَسْوَدُ اَلدُّؤَلِي وَاسْمُهُ ظَالِمُ بِنِ عمرو بن جندل بن سفيان خطيبًا عَالِمًا، وَكَانَ قَدْ جَمَعَ شِدَّةَ اَلْعَقْلِ وَصَوَابَ اَلرَّأْيِ وَجَوْدَةَ اَللِّسَانِ"[١٤]. وَيَقُوْلُ عَنْهُ أَيْضًا:"أَبُو الْأَسْوَدِ الدِّيَلِي مَعْدُودٌ فِي طَبَقَاتٍ مِنْ النَّاسِ، وَهُوَ فِيهَا كُلِّهَا مُقَدَّمٌ، وَمَأْثُوْرٌ عَنهُ الْفضل فِي جَمِيعهَا، كَانَ مَعْدُوْداً فِي الْفُقَهَاءِ، وَالشُّعَرَاءِ، وَالمُحَدِّثِيْنَ، وَالأَشْرَافِ، وَالفُرْسَانِ، وَالأُمَرَاءِ، وَالدُّهَاةِ، وَالنُّحَاةِ، وَالحَاضِرِي الجَوَابِ، وَالشِّيْعَةِ، وَالبُخَلاَءِ، وَالصُّلْعِ الأَشْرَافِ".[١٥]

وقد روى الجاحظ عن أبي الأسود كثيرًا من أشعاره، وَنَقَلَ اَلْجَاحِظُ فِي "اَلْبَيَانِ"أَنَّ غُلَامًا كَانَ يُقَعِّرُ فِي كَلَامِهِ، فَأَتَى أَبَا اَلأَسْوَدِ يَلْتَمِسُ بَعْضَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو اَلأَسْوَدِ: مَا فَعَلَ أَبُوْكَ؟ قَالَ: أَخَذَتْهُ اَلحُمَّى، فَطَبَخَتْهُ طَبْخًا، وَفَنَخَتْهُ فَنْخًا، وَفَضَخَتْهُ فَضْخًا، فَتَرَكَتْهُ فَرْخًا! فقَالَ أَبُو اَلأَسْوَدِ: فَمَا فَعَلَتْ اِمْرَأَتُهُ اَلَّتِي كَانَتْ تَشَارُهُ وَتَمَارُهُ وَتَهَارُهُ وَتُضَارُهُ؟ قَالَ: طَلَّقَهَا وَتَزَوَّجْتْ غَيْرَهُ فَرَضِيَتْ وَحَظِيَتْ وَبَظِيَتْ؟فَقَالَ أَبُو اَلأَسْوَدِ: قَدْ عَلِمْنَا رَضِيَتْ وَحَظِيَتْ وَبَظِيَتْ! فَمَا بَظِيَتْ؟ قَالَ: بَظِيَتْ حَرْفٌ مِنْ "اَلْغَرِيْبِ" لَمْ يَبْلُغْكَ! فَقَالَ أَبُو اَلأَسْوَدِ: يَا بُنَيَّ، كُلُّ كَلِمَةٍ لَا يَعْرِفُهَا عَمُّكَ فَاسْتُرْهَا؛ كَمَا تَسْتُرُ اَلسُتُورُ خَرَءِهَا![١٦]

وَيَقُوْلُ اَلْجَاحِظُ:" وَذَكَرُوا اَلْعَمَامَةَ عِنْدَ أَبِي اَلأَسْوَدِ اَلدُّؤَلِي فَقَالَ:«جُنَّةٌ فِي اَلْحَرْبِ، وَمُكِنَّةٌ مِنْ اَلْحَرِّ، وَمَدْفَأَةٌ مِنْ اَلقَرِّ، وَوَقَارٌ فِي اَلنَّدِيِّ، وَوَاقِيَةٌ مِنْ اَلأَحْدَاثِ، وَزِيَادَةٌ فِي اَلْقَامَةِ، وَهِيَ بَعْدُ عَادَةٌ مِنْ عَادَاتِ اَلْعَرَبِ»".[١٧] وَيَقُوْلُ اَلْجَاحِظُ أَيْضًا:" قَالَ أَبُو اَلأَسْوَدِ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُكَذِبَ صَاحِبَكَ فَلَقِنْهُ، وَقَالَ أَبُو اَلأَسْوَدِ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْظُمَ فَمُتْ! وَقَالَ أَبُو اَلأَسْوَدِ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُفْحِمَ عَالِمًا فَأَحْضِرْهُ جَاهِلًا".[١٨]

ومِمَّا سبقَ نلحظُ أنَّ الجاحظَ يضعُ أَبَا الأَسْوَدِ فِي مَكَانَةٍ عَالِيَةٍ بينَ العُلَمَاءِ والنَّحويين بَلْ بَيْنَ اَلنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ. كما نلحظُ أنَّه لم ينقل عنه رأيًا نحويًّا!!

(٢) مَوْقِفُهُ مِنْ اَلْخَلِيْلِ بِنِ أَحْمَدَ (ت ١٧٥هـ):

مِنْ اَلنُّحَاةِ اَلَّذِيْنَ أَكْثَرَ اَلْجَاحِظُ مِنْ ذِكْرِهِمْ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ عَبْقَرِيُّ اَلْعَرَبِيَّةِ وَإِمَامُهَا اَلْخَلِيْلُ بِنُ أَحْمَد الفراهيدي، وَهُوَ أَحَدُ رُوَّادِ اَلْمَدْرَسَةِ اَلبَصْرِيَّةِ وَمُؤَسِّسِيْهَا، فَقَدْ قَالَ اَلْجَاحِظُ فِي كِتَابِهِ "فِي تَفْضِيْلِ صَنْعَةِ اَلْكَلَامِ"، وَهِيَ اَلرِّسَالَةُ اَلْمَعْرُوْفَةُ بِالْهَاشِمِيَّةِ، أَنَّ اَلْخَلِيْلَ بِنَ أَحْمَدَ مِنْ أَجْلِ إِحْسَانِهِ فِي اَلنَّحْوِ وَالْعَرُوْضِ وَضَعَ كِتَاباً فِي اَلإِيقَاعِ وَتَرَاكِيْبِ اَلأَصْوَاتِ، وَهُوَ لَمْ يُعَالِجْ وتراً قَطْ، وَلَا مَسَّ بِيَدِهِ قَضِيْباً قَطْ، وَلَا كَثُرَتْ مُشَاهَدَتُهُ لَلْمُغَنِّيْنَ، وَكَتَبَ كِتَابًا فِي اَلْكَلَامِ، وَلَوْ جَهِدَ كُلُّ بَلِيْغٍ فِي اَلأَرْضِ أَنْ يَتَعَمَّدَ ذَلِكَ اَلْخَطَأَ وَالتَّعقيدَ لَمَا وَقَعَ لَهُ، وَلَوْ أَنَّ مَمروراً استغرقَ قوَى مُرته[١٩] في

الهَذيَانِ لَمَا تهيَّأَ لَهُ مَثْلُ ذلك منه، ولا يتَأَتَّى مِثْلَ ذلك لأحد إلا بِخُذلانِ الَّذي لا يقي منه شيءٌ[٢٠].

ويقولُ الجَاحِظُ:"وَضَعَ اَلْخَلِيلُ بِنُ أحمدَ لأوزانِ اَلْقَصِيْدِ وَقِصَارِ اَلأَرْجَازِ أَلْقَابًا لَمْ تَكُنْ اَلْعَرَبُ تَتَعَارَفُ عَلَى تِلْكَ الأعاريضِ بتلكَ الألقابِ، وتلكَ الأوزانِ بتلكَ الأسماءِ، كَمَا

(١٣) ينظر: الأعلام (٢٣٦/٣).

(١٤) ينظر: البيان والتبيين (١٧١/١).

(١٥) ينظر: البيان والتبيين(٣٢٤/١)، والبغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام

محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١٩٩٧،٤م، (٢٨١/١)، ومعجم الأدباء (٣٤/١٢)، والوافي بالوفيات (٣٠٩/٥)، والعسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة (٥٦٢/٣)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ، وابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت،ط١، ١٩٨٦م،(٢٩٨/١)، والأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢، (٣٤٩/١٢)، والجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٩٨/٦).

(١٦) الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت،(٢١٠/١).

(١٧) البيان والتبيين (٦٩/٣).

(١٨) البيان والتبيين (٤٨/٢).

(١٩) رجل ذو مرّة : للقويّ . ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة،(٣٦٨/٢) .

(٢٠) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط١٩٧٣،٥م،(٢/ ١٧٧).

ذَكَرَ الطَّويلَ والبَسيطَ والمديدَ والوافرَ والكاملَ وأشباهَ ذلك، وكَمَا ذكرَ الأوتَادَ والأسبَابَ والخَزْمَ والزِّحَافَ"[٢١].

وينقل الجاحظُ قولَ الخَليلِ قائلاً:" ولمَّا قال الخليلُ بن أحمد:لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه حتَّى يتعلَّم ما لا يحتاج إليه؛ قال أَبو شمر: إذا كان لا يُتوصَّل إلى ما يحتاج إليه إلاّ بما لا يحتاجُ إليه؛ فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه".[٢٢]

وَيقُولُ الجاحظُ:"وقالَ الخَليلُ: تَكثَّرْ من العِلْمِ لِتَعْرِفَ، وَتَقلَّلْ مِنْهُ لِتَحْفَظَ"[٢٣]، ويقولُ أيضًا:" وَقَالَ الخليلُ بن

أحمدَ: اِجْعلْ تَعليمَكَ دراسةً لِعِلْمِكَ، وَاجْعَلْ مُناظرةَ اَلْمُتعلِّمِ تَنْبيهًا لَكَ عَلَى مَا لَيْسَ عِنْدَكَ".[٢٤]

وَلَقَدْ اِمْتَازَ اَلْخَليلُ عَنْ سَائِرِ الرُّواةِ فِي الإِسْلامِ بِشِدَّةِ اَلْعَقْلِ وثُقُوبِ اَلْفِرَاسَةِ وَدِقَّةِ اَلْفِطْنَةِ وَالاسْتِنْبَاطِ، فَهُوَ مُدَوِّنُ اَللُّغَةِ، وَوَاضِعُ اَلْعَرُوْضِ، ومُسْتخرجُ اَلْمُعَمَّى، وَمُتِمِّ النَّحْوِ، حَتَّى قَالُوا فِيْهِ: إِنَّهُ أَذْكَى اَلْعَرَبِ وأَجْمَعَهُمْ، كما أنَّ ابن المقفع أذكى العجم وأجمعهم، وقد نَفَسَ عليه الجَاحِظُ هذه الصِّفاتِ؛ فَذَمَّهُ فِي كِتَابِ "الحيوان" بما لا يُذَمُّ مثلُ الخليلِ؛ إِذْ قَالَ: إِنَّهُ "عَرَّهُ مِنْ نَفْسِهِ حِيْنَ أَحْسَنَ فِي النَّحْوِ وَالعروضِ، فَظَنَّ أَنَّهُ يُحْسِنُ اَلْكَلاَمَ وتَأليفَ اللُّحُونِ، فَكَتَبَ فيهمَا كِتَابين لا يُشيرُ بِهِمَا ولا يدلُّ عليهمَا إلا المَرَّةُ المُحترقةُ، ولا يؤدي إلى مثل ذلك إلا خذلان من الله"[٢٥].وهذا من تَعَنُّتِ اَلْجَاحِظِ[٢٦].

ويقول الجاحظُ:" وكان أبو إسحاق إذا ذكر الوهمَ لم يُشَكَّ في جُنونه وفي اختلاط عقله، وهكذا كان الخليلُ وإنْ كانَ قَدْ أحسَنَ في شيءٍ" [٢٧]. ولعلَّ الجاحظ في موقفه هذا من الخليل قد تأثَّر بموقف شيخه النَّظَّام من الخليل بن أحمد، حيثُ يقولُ:" وَذَكَرَ النَّظّامُ الخليلَ بن أحمدَ فقالَ: توحَّدَ به العُجْبُ فأهلكَه، وصَوَّر له الاستبدادُ صَوابَ رأيه فتعاطى ما لا يحسنُه، ورامَ ما لا يناله، وفتنَتْه دوائرُه التي لا يَحتاجُ إليها غيرُهُ" [٢٨].ويقول الجاحظ في الرسائل الأدبية:" وقد يكون الرجل يحسن الصّنف والصنفين من العلم، فيظنّ بنفسه عند ذلك أنّه لا يحمل عقله على شيء إلّا نفذ به فيه، كالذي اعترى الخليل بن أحمد بعد إحسانه في النحو والعروض، أن ادّعى العلم بالكلام وبأوزان الأغاني، فخرج من الجهل إلى مقدار لا يبلغه أحد إلّا بخذلان الله تعالى.فلا حرمنا الله تعالى عصمته، ولا ابتلانا بخُذلانه"[٢٩]. وهذا موقفٌ غريبٌ عجيبٌ من الجاحظ تجاه الخليل ابن أحمد !!.

وَمِنْ اَلْمُفَارَقَاتِ اَلطَّرِيْفَةِ اَلَّتِي ذَكَرَهَا اَلْجَاحِظُ عَنْ اَلْخَليلِ بنِ أحمدَ قوله:"وَقَدْ قِيْلَ لِلْخَليلِ: ما لكَ لا تقولُ الشِّعر؟ قال: الذي يجيئُني لا أرضاهُ، والذي أرْضاه لا يجيئُني"[٣٠].

وممَّا سبقَ يتَّضحُ لَنَا انتقادُ اَلْجَاحِظِ للخَليلِ بن أحمدَ فِيْمَا لَا يَتَّصِلُ بِعِلْمِ اَلنَّحْوِ، وَكَانَ انتقادُهُ مُنْصَبًّا عَلَى مُحَاوَلَاتِ اَلْخَلِيْلِ فِي عِلْمِ اَلْكَلَامِ، وَلِسَانُ حَالِ اَلْجَاحِظِ يريدُ أنْ يقولَ للخليلِ لِكُلِّ تَخَصُّصُهُ، أَجَدْتَ يا خليلُ وأبدعتَ فِي النَّحْوِ وَالْعَرُوْضِ، فَلَنْ نُزَاحِمَكَ فِيْهِمَا، فَدَعْ لَنَا عِلْمَ اَلْكَلاَمِ وَالأَدَبِ!!

(٣) مَوْقِفُهُ مِنْ سِيْبَوَيْهِ (ت١٨٠هـ):

مِمَّنْ ذَكَرَهُمْ اَلْجَاحِظُ مِنْ كِبَارِ اَلنُّحَاةِ إِمَامَ اَلنُّحَاةِ سيبويه، وامتدحَهُ، كَمَا أُعْجِبَ بِكِتَابِهِ وَتَتلمَذَ عليه، فالجَاحِظُ

(٢١) ينظر: البيان والتبيين (٢١/١).

(٢٢) الحيوان (٣٧/١).

(٢٣) البيان والتبيين (١٤١/١)، والحيوان (٥٩/١).

(٢٤) البيان والتبيين (١/ ١٤٨)

(٢٥) ينظر: الحيوان (١٥٠/١).

(٢٦) ينظر: تاريخ آداب العرب (١/ ٢٦٢).

(٢٧) الحيوان (٧/ ١٦٦)

(٢٨) الحيوان (٧/ ١٦٥)

(٢٩) الجاحظ، عمرو بن بحر، الرسائل الأدبية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ،(ص٢٠٩).

(٣٠) الحيوان (٣/ ١٣٢).

مِمَّنْ يَرَي أَنَّ كِتَابَ سِيبويه لَمْ يكتبْ النَّاسُ فِى النَّحْوِ كِتَابًا مِثْلَهُ، وجميعُ كُتُبِ النَّاسِ عليه عيالٌ[٣١].

وَكَانَ سيبويه لِشُهْرَتِهِ وفَضْلِهِ عَلَمًا عِنْدَ النَّحويّين، وكانَ يُقَالُ بالبَصْرَةِ: قَرَأَ فُلانٌ اَلكتاب؛ فيُعلمُ أَنَّهُ كتابَ سيبويه، ولا يُشكُّ أَنَّهُ كتاب سيبويه[٣٢]. وقال فيه أبوعثمان المازني:" مَنْ أَرَادَ أَنْ يُصَنِّفَ كِتَاباً فِي النَّحْوِ بَعْدَ كِتَابِ سِيبويه فَلْيَسْتَحِ"[٣٣].

وقد ورد عن الجاحظ قوله: أردتُ الخُروجَ إلى مُحمَّدٍ بنِ عبد الملكِ الزَّيَّاتِ، فَفَكَّرتُ فِى شيءٍ أُهديهُ إليه، فَلَمْ أَجِدْ شيئًا أشرفَ مِنْ كتابِ سيبويه. فقلتُ لَهُ: أَرَدْتُ أَنْ أُهْدِيَ إليكَ شيئًا، ففكَّرْتُ فإذَا كُلُّ شيءٍ عندكَ دُوْنَهُ، فَلَمْ أَرَ أشرفَ مِنْ كِتَابِ سيبويه. وهذَا كتابُ سيبويه اشتريتُهُ مِنْ مِيْرَاثِ اَلْفراءِ. فَقَالَ: واللهِ مَا أهديتَ إلىّ شيئًا أحبَّ إلَىَّ مِنْهُ.

وَوَرَدَ أَيْضًا أنَّ الجَاحِظَ لَمَّا قَدِمَ مِنْ اَلْبَصْرَةِ فِى بَعْضِ قَدَمَاته أهدى إلى مُحَمَّد بن عبد الملك الزيات فى وزارته نسخة من كتاب سيبويه، وأعلم بإحضارها صحبته قبل أن يحضرها مجلسه، فقال له ابن الزيات: أو ظننتَ أنَّ خزائننا خاليةً مِنْ هذا الكتابِ؟

فقال: ما ظننتُ ذاك؛ ولكنَّها بخطِّ الفرّاءِ ومُقابلةِ الكسائىّ وتهذيبِ عمرو بن بحر الجاحظ. فقال له ابن الزيات: هذه أجلُّ نُسخةٍ تُوجدُ وأغربُهَا. فأحضرها إليه، فَسُرَّ بها، وَوَقَعَتْ مِنْهُ أَجْمَلَ مَوْقِعٍ[٣٤].

وكَانَ الجَاحِظُ يُحبُّ سيبويه ويُدافعُ عنه كثيرًا، وقد وردتْ رواياتٌ تحدَّثتْ عَنْ لِقَائِهِمَا مَعًا، ومن أمثلة تفضيل الجاحظ لسيبويه ما ذكره أبو العباس قائلاً:"وكانَ الأخفش يؤدّب ولد الكسائى، وكان الجاحظ قد سمع هذا الخبرَ فقالَ فيمَا يُعدّده من فخرِ أهلِ البَصْرَةِ عَلَى أهلِ الكُوفَةِ: هؤَلاءِ يأتُونكُمْ بِفُلانٍ وفُلانٍ، وَسِيبويه الَّذِى اعتمدتُمْ عَلَى كُتُبِهِ وجَحَدْتُمْ فَضْلَهُ".[٣٥]

(٤) مَوْقِفُهُ مِنْ اَلْأَخْفَشِ الأوسطِ (ت ٢١٥): تُؤَكِّدُ الرِّوايَاتُ اَلَّتِي ترجمتْ لِلْجَاحَظِ أَنَّه أَخَذَ النَّحْوَ عَنْ اَلأَخْفَشِ، وَأَخَذَ اَلْكَلامَ عَنْ اَلنَّظَّامِ، وَتَلَقَّفَ اَلفَصَاحَةَ مِنْ اَلأَعْرَابِ شَفَاهًا بِالمَرْبَدِ"[٣٦]. وَقَدْ نَقَلَ اَلْجَاحِظُ عَنْ أُسْتَاذِهِ عِدَّة رُوَايَاتٍ، مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِبَعْضِ كُتُبِ اَلأَخْفَشِ، وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ "أَنَّ مُعْتَرِضًا قَالَ لِأَبِي اَلْحَسَنِ اَلأَخْفَشِ: أَنْتَ أَعْلَمُ اَلنَّاسِ بِالنَّحْوِ؛ فَلِمَ لَا تَجْعَلُ كُتُبَكَ مَفْهُومَةً كُلَّهَا؟ وَمَا بَالُنَا نَفْهَمُ بَعْضَهَا وَلَا نَفْهَمُ أَكْثَرَهَا؟ وَمَا لَكَ تُقَدَّمُ بَعْضَ اَلْعَرِيضِ وَتُؤَخِّرُ بَعْضَ اَلْمَفْهُومِ؟

فَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ لَمْ أَضَعْ كُتُبِي اِبْتِغَاءَ وَجْهِ اَللهِ، وَلَا زُلْفَى إِلَيْهِ؛ فَلَيْسَتْ مِنْ كُتُبِ اَلدِّينِ. وَلَوْ وَضَعْتُهَا عَلَى اَلْوَجْهِ اَلَّذِي تُرِيدُونَهُ لَقُلَّتْ حَاجَةُ اَلنَّاسِ إِلَى؛ لِلسُّؤَالِ عَمَّا لَا يَفْهَمُونَهُ مِنْهَا. وَأَنَا غَايَتِي اَلْكَسْبُ؛ فَوَضَعْتُ بَعْضَهَا مَفْهُوماً؛ لِتَدْعُوَهُمْ حَلَاوَةُ مَا فَهِمُوهُ إِلَى اِلْتِمَاسِ فَهْمِ مَا لَمْ يَفْهَمُوا. وَإِنَّمَا قَدْ كَسَبْتُ فِي هَذَا اَلتَّدبِيرِ، إِذْ كُنْتُ إِلَى اَلْكَسْبِ ذَهَبْتُ... وَهَذَا سَبَبٌ عَجِيبٌ مِنْ أَسْبَابِ صُعُوبَةِ هَذِهِ اَلْكُتُبِ اَلنَّحْوِيَّةِ[٣٧].

وَلَقَدْ حَاوَلَ الجَاحِظُ تَقييمَ بَعْضِ كُتُبِ أُسْتَاذِهِ، فَيَتَحَدَّثُ عَنْ اَلأَخْفَشِ اَلأوسطِ، حيثُ يقولُ الجَاحِظُ:" إِنَّه كان ينشرُ في مُصنَّفَاتِهِ ضَرْبًا مِنْ اَلْغُمُوضِ والعُسْرِ، حَتَّى يَلْتَمِسَ مِنْهُ النَّاسُ تفسيرَهَا؛ رَغْبَةً فِي اَلتَّكَسُّبِ بِهَا"[٣٨].

(٣١) ابن خلكان، أحمد بن مُحَمَّد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء هذا الزمان، تحقيق: إحسان عباس،دار صادر، بيروت، (٤٦٣/٣).

(٣٢) السيرافي، الحسن بن عبد الله، أخبار النحويين البصريين، تحقيق: طه مُحَمَّد الزيني، ومُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦م، (ص٤٠).

(٣٣) معجم الأدباء (١٢٣/٧).

(٣٤) ينظر:القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م،(٣٥١/٢)، ووفيات الأعيان (٤٦٣/٣).

(٣٥) إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣٥٠/٢).

(٣٦) الأفغاني، سعيد بن مُحَمَّد، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، الدار الهاشمية، دمشق،ط٢، ١٩٦٤م،(ص: ٤٢٣).

(٣٧) ينظر: الحيوان (٩١/١-٩٢).

(٣٨) ينظر: الحيوان (٩٢/١)، وضيف، شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، (ص: ٩٥)

ولقد أُشتهرَ الجاحظُ بكراهيَتِهِ الشَّديدةِ لتعقيدِ النَّحْوِ وخِلافاتِ النَّحويين بصفةٍ خاصَّةٍ، والتَّعْقيدِ اللُّغَويّ بصفةٍ عامَّةٍ، ويَرْوِي فِي هَذَا الشَّأنِ قِصَّةَ أحدِ النّحويين، حيثُ يقولُ:" مرّ أبو علقمة النحويّ ببعضِ طُرُقِ البَصْرَةِ، وهاجتْ به مرةٌ، فوثبَ عليه قومٌ منهم فأقبلوا يَعضُّونَ إبهامَهُ ويؤذّنون في أُذُنِهِ، فأفلتَ مِنْهُمْ، فَقَالَ:«مَا لَكُمْ تتكأكئونَ عليَّ كَمَا تتكأكئون على ذِي جِنَّةٍ، افرنقَعُوا عنّي». قال: دعُوهُ فإنَّ شيطانَهُ يتكلَّمُ بالهِنْدِيَّةِ"[٣٩].

(٥) مَوْقِفُهُ مِنْ اَلْقُرَّاءِ (ت ٢٠٧هـ):

لَقَدْ كَانَ اَلْقُرَّاءُ مَعْنيًّا بِعِلْمِ اَلْقِرَاءَاتِ بجانبِ علمِ النَّحو، وَهَذِهِ اَلْعَقْلِيَّةُ الَّتِي تَمَخَّضَتْ- أو كادتْ- لدراسةِ عُلُومِ اللُّغةِ والنَّحْوِ وما إليها لا يأتى أن يكون عندها الاستعدادُ الفطريُّ لعلمِ الكلامِ، ولكنَّ طُمُوحَ القرَّاءِ أبى إلا أنَّ يُحاولَ إتقانَ علمِ الكلامِ فأخفقَ، وذلك لأنَّ طبيعتَهُ هى طبيعةُ النَّحويّين، وعَنْ ذلك يقولُ أديبُ العربيَّةِ أبو عمرو الجاحظُ:" دخلتُ بغدادَ سنةَ أربعٍ ومائتين حينَ قَدِمَ إليها المأمونُ- وكانَ القرَّاءُ يُحبُّنِى، ويَشتهِى أَنْ يتعلَّمَ شيئًا مِنْ عِلْمِ الكَلامِ، فلم يكنْ له فيه طبعٌ". [٤٠] لقد أخفقَ فى دراسةِ علمِ الكلامِ، ولكنَّهُ كان يحبُّ أن يشتهرَ بالاعتزالِ والفلسفةِ، وليس له فيهما قدمٌ.

(٦) مَوْقِفُهُ مِنْ نُحَاةِ اَلْمَدْرَسَتَيْنِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ:

اَلْمُلاحَظُ أنَّ عَلاقةَ الجَاحِظِ بالنَّحويين طيّبةٌ بصفةٍ عامَّةٍ يُكِنُّ لَهُمْ الاحترامَ والتَّقديرَ لدَوْرِهِمْ وجُهُودِهِمْ في عملهم النَّحوي، ولم يورد الجاحظ مخالفة لهم وكأنه أراد أن يحتفظ كل عالم بتخصصه وعلمه ولا يتدخل في تخصص غيره وعلمه، إلا أنَّه خَالفَهم في مُحاولاتِهم في عِلْمِ الكَلَامِ؛ كَمَا حَدَثَ معَ الخليلِ بنِ أحمدَ والفرَّاءِ، كما مرَّ- ونلحظ أيضًا كثرة استشهاده وتمثيله بأقوالِ البصريين، ولعلَّ السَّببَ هو أنَّ مدرسة الكوفة كانت في طور التكوين في عصره، ومعروفٌ أنَّ مدرسة البصرة ونحاتها سبقوا الكوفيين تاريخيًّا وعلمًا بل وعددًا، ويُضاف لما سبق أنَّ الجاحظَ بصريُّ المولد والوفاةِ، وقد ظهر ذلك في الأمثلة التي ذكرتها سلفًا.

(٣٩) البيان والتبيين (١/ ٣٠١).

(٤٠) وفيات الأعيان (١٢٠/٦).

وأمَّا ما يتصلُ بموقف الجاحظ من البَصْرةِ والكُوفةِ بصفَةٍ عامَّةٍ فأسوق هنا بعض الأمثلة للوقوف على موقفه في هذا الشَّأنِ، قالَ الجاحظُ فى كتاب"البلدان"، وقد ذكرَ فَضْلَ البَصْرَةِ وَرِجَالَهَا:"وفينَا اليومَ ثلاثةُ رجالٍ نَحويُّون ليسَ فِى الأَرْضِ مِثْلُهُمْ، ولا يُدرَكُ مُثْلُهم- يعنى فى الاعتلالِ والاحتجاجِ والتقريب - منهم أبو عثمان بكر بن مُحَمَّد المازنىّ، والثانى العباس بن الفرج الرياشىّ، والثالث أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن الزيادىّ. وهؤلاء لا يُصابُ مَثْلُهُمْ فِى شىءٍ مِنْ الأَمْصَارِ".[٤١] ويقولُ الجاحظُ أيضًا :"وزعمَ أصحابُنَا البصريون عن أبي عمرو بن العلاء أَنَّهُ قالَ: لَمْ أرَ قرويين أفصحَ مِنْ الحسنِ والحَجَّاجِ، وكان- زعموا- لا يبرّئهما من اللَّحنِ"[٤٢]. فقد يفهم من تعبير أصحابنا أنَّه يؤيدهم في كثير من الآراء.

ويقولُ عَنْ أهلِ الكُوفَةِ:"وكذلك أهلُ الكُوفَةِ تأثَّروا بِلُغَةِ اَلْفُرْسِ الَّذِينَ احتكُّوا بِهِمْ، فَسَمُّوا اَلْمِسْحَاةَ البالَ، وسَمُّوا الحُوكَ البَاذروجَ، وسَمُّوا القِثَّاءَ خيارًا..."[٤٣]. ويقولُ:"وقَالَ أبو عمرو بنَ العلاءِ لأهلِ الكُوفَةِ: لَكُمْ حَذْلَقَةُ التبَطِ وَصَلَفُهِمْ، وَلَنَا دَهَاءُ فَارِسَ وأَحْلامُهَا"[٤٤]. ويقول أيضًا:"وسأل معاوية ابن الكوّاء عن الكوفة، فقالَ: أبحثُ النَّاسِ عَنْ صغيرةٍ، واتركَهُ لكبيرةٍ"[٤٥].

ولكنَّ ميلَهُ للبَصْريين وتأييدَهُ لهم لَمْ يمنعْهُ مِنْ إيرادِ ما ينتقدُهُمْ، ورأينا موقِفَهُ مِنْ الخَليلِ بنِ أحمدَ، ومِنْ ذلك أيضًا قوله:" حدَّثني أبو سعيد عبد الكريم بن روح قال: قالَ أهلُ مكَّةَ لمُحمَّدِ بنِ المُناذِرِ الشَّاعِرِ: لَيْسَتْ لَكُمْ مَعَاشِرَ أهلِ البَصْرَةِ لُغَةٌ فَصيحةٌ، إنَّمَا الفَصَاحَةُ لَنَا أَهْلَ مكَّةَ. فقالَ ابنُ المناذرِ: أَمَّا ألفاظُنَا فَأَحْكَى اَلألفاظِ للقُرْآنِ، وأكثرها له مُوافقةً، فَضَعُوا القُرآنَ بَعْدَ هَذَا حَيْثُ شِئْتُمْ. أَنْتُمْ تُسَمُّونَ القِدْرَ بُرْمَةً، وتَجْمَعُوْنَ البُرْمَةَ على

(٤١) نقلاً عن: إنباه الرواة على أنباه النحاة (٢٨٣/١).

(٤٢) البيان والتبيين (١٤٩/١).

(٤٣) البيان والتبيين (٢٠/١).

(٤٤) البيان والتبيين (٧٢/٢).

(٤٥) البيان والتبيين (١٧٤/٢).

بِرَامٍ، ونحنُ نقولُ قِدْرٌ، ونجمعُهَا على قُدُوْرٍ، وقال الله عزَّ وجلَّ: (وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ)"[٤٦].

وبعدُ، فقد أوردتُ بعض الأمثلة باختصار فالمقام لا يتسع للاسهاب والإطناب فالموقف واضحٌ جليٌّ، فالنحاة الذين سبقوا الجاحظ أو عاصروه أكثر بكثير ممَّا مثلت بهم هنا، فمثلاً ذكر الكسائي (ت ١٨٩هـ) فقال:" قال الكسائي: لقيتُ أعرابيًّا فجعلتُ أسألُهُ عَنْ الحَرْفِ بَعْدَ اَلْحَرْفِ، والشَّيءِ بَعْدَ الشَّيءِ أُقرنُهُ بغيرِهِ، فقالَ: تالله ما رأيتُ رجُلًا أقدرُ على كلمةٍ إلى جنبِ كلمةٍ منها أشبهَ شيءٍ بها وأبعدَ شيءٍ منها؛ مِنْكَ".[٤٧]

ونقل الجاحظ عن يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ) قوله:" وقال يونسُ: لولا شِعْرُ اَلْفرزدقِ لَذَهَبَ نِصْفُ أَخْبَارِ النَّاسِ".[٤٨]

ويقول عنه أيضًا:"وقال محمدُ بن سلام: قال يونس بن حبيب: ما جاءنا عن أحدٍ مِنْ رَوَائِعَ الكَلامِ مَا جاءنَا عن رسولِ اللهِ".[٤٩]

ينقلُ الجاحظ عن يونسَ قوله:"إنَّ علمَك مِن روحِك ومالَكَ مِن بدنك، فضعْه منكَ بمكان الرُّوح وضعْ مالَكَ بمكان البدنِ"[٥٠].

وكما كان الجاحظ لا يتورع عن نقد ما يراه عند النحويين وجدنا نحويًّا كوفيًّا لغويًّا كبيرًا ينتقده، حيثُ يقولُ ثَعْلَبُ (ت٢٥١هـ) عن الجاحظ:"ليسَ بثقةٍ ولا مأمونٍ".[٥١]

وعلى الرُّغمِ ممَّا سَبَقَ فَقَدْ اِرْتَبَطَ اَلْجَاحِظُ بعَلاقَاتٍ طيِّبَةٍ مَعَ نُحَاةِ عَصْرِهِ حتَّى آخر حياته، حيثُ ورد قول المُبرِّد:«دخلتُ على الجاحِظِ فِي آخِرِ أيامِهِ فقلتُ لَهُ: كيفَ أَنْتَ؟ قالَ: كيفُ يكونُ مَنْ نِصْفُهُ مَفْلُوْجٌ لَوْ حُزَّ بالمَنَاشِيْرِ لا يَشْعُرُ بِهِ، وَنِصْفُهُ الآخرُ مُنقَرِّسٌ لَوْ طَارَ الذُّبَابُ بِقُرْبِهِ لَآلَمَهُ»[٥٢].

اَلْمَطْلَبُ اَلثَّانِي: مَوْقِفُ اَلْجَاحِظُ مِنْ مَنْهَجِ اَلنُّحَاةِ فِي أَخْذِ اَللُّغَةِ لِتَقْعِيْدِهَا:

إنَّ كَلامَ العَرَبِ هو المَصْدَرُ الثَّالِثُ مِنْ مَصَادِرِ السَّمَاعِ بَعْدَ اَلْقُرْآنِ الكريمِ والحَدِيْثِ الشَّرِيْفِ عِنْدَ مَنْ أَجَازَ الاحتجاجَ بِالحديثِ، وكلامُ العربِ الَّذي يُحتجُّ بهُ هُوَ كُلُّ نَظْمٍ أَوْ نَثْرٍ ثَبَتَ عَنْ الفُصَحَاءِ المَوْثُوْقِ بِعَرَبِيَّتِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَفْسَدَ اَلأَلْسِنَةُ؛ فَلَيْسَ كُلُّ كلامٍ عربيٍّ يَصِحُّ الاحتجاجُ بِهِ، وإنَّمَا وَضَعَ اَلعُلَمَاءُ ضَوَابِطَ مَكَانِيَّةً وزَمَانِيَّةً لِمَا يَجُوْزُ الاحتجاجُ بِهِ مِنْ كَلامِ العَرَبِ، ومَا لا يجوزُ، وفِي هَذَا الشَّأْنِ عَرَضَ اَلْجَاحِظُ لِبَعْضِ مَلامِحِ مَنْهَجِ النُّحَاةِ واللُّغويين في جمعِ اللُّغَةِ ثُمَّ تَقْعِيْدِهَا، وذَكَرَ بَعْضَ الشُّرُوْطِ الَّتِي أَوْجَبَهَا النُّحَاةُ فِيْمَنْ يَأْخُذُوْنَ اللُّغَةَ عَنْهُ؛ لِيَضَعُوا عَلَيْهَا قَوَاعِدَ النَّحْوِ العربيِّ، كأخذهم اللُّغةَ عن الفُصَحَاءِ فِي قبائلَ بعينِهَا فِي أماكنَ مُحدَّدةٍ وأزمنةٍ مَعروفَةٍ، يقولُ اَلْجَاحِظُ:"وإنَّمَا عَنَى العتابي إفهامُكَ العربَ حاجتك على مجاري كلامِ العربِ الفُصَحَاءِ. وأصحابُ هَذِهِ اللُّغَةِ لا يفْقَهُون قولَ القائلِ مِنَّا:«مُكْرَهٌ أَخَاكَ لا بطلٌ». و:«إذا عزَّ أخاك فَهُنْ». ومَنْ لم يفهمْ هذَا لَمْ يفهمْ قولهم: ذهبتُ إلى أبو زيدٍ، ورأيتُ أبي عمرو. ومتى وجد النَّحويون أعرابيًّا يَفْهَمُ هَذَا وأشباهَهُ بَهْرَجُوْهُ وَلَمْ يَسْمَعُوا مِنْهُ، لأنَّ ذلك يدلُّ على طُوْلِ إقامَتِهِ فِي الدَّارِ الَّتِي تُفْسِدُ اللُّغَةَ وتُنْقِصُ البَيَانَ؛ لأنَّ تِلْكَ اللُّغَةَ إنَّمَا اِنْقَادَتْ وَاسْتَوَتْ، واطَّرَدَتْ وتَكَامَلَتْ، بالخِصَالِ الَّتِي اِجْتَمَعَتْ لَهَا فِي تِلْكَ اَلْجَزِيْرَةِ، وَفِي تِلْكَ اَلْجِيْرَةِ"[٥٣].

هَذَا، وَقَدْ أَوْرَدَ اَلْجَاحِظُ فِي كِتَابِهِ "البيان والتبيين" مُقابلةً طريفةً بَيْنَ لُغَاتِ أهلِ مكَّةَ والبصرةِ والكوفةِ، يُفيدُ إيرادَها في شَرْحِ الظَّاهرةِ المَذكورةِ أعلاهُ، قالَ الجاحظُ:"أهلُ الأمْصَارِ إنَّمَا يتكلَّمُونَ علَى لُغَةِ النَّازِلَةِ فيهم مِنْ العَرَبِ؛ ولذلِكَ نَجِدُ الاخْتِلافَ فِي أَلْفَاظِ أهلِ الكوفَةِ والبَصْرَةِ والشَّامِ ومِصْرَ".[٥٤]

---

(٤٦) البيان والتبيين (٤٠/١).

(٤٧) البيان والتبيين (٢٠٤/٢).

(٤٨) البيان والتبيين (٢٦٢/١).

(٤٩) البيان والتبيين (١٤/٢).

(٥٠) الحيوان (٤٤/١).

(٥١) الحيوان (١/ ٦١).

(٥٢) البخلاء (ص: ٩).

(٥٣) البيان والتبيين (١٤٨/١).

(٥٤) البيان والتبيين (٣٩/١).

وقَدْ أَفْرَدَ ابنُ جِنّي فِي (اَلْخَصَائِصِ) بابًا في ترك الأخذ عن أهل المضر؛ أي: أهل المدن والقرى- بيَّن فيه عِلَّةَ اِمْتناعِ الأَخْذِ عَنْهُم، وهي ما عَرَضَ لِلُّغَاتِ الحَاضِرَةِ وأهلِ المُضَرِ مِنْ الاخْتِلالِ والفَسَادِ والخَطَلِ[٥٥].

وهذا ما أَكَّدَهُ السيوطي فيما بعدُ، نقلًا عن أبي نصر الفارابي، حيثُ يقولُ:"الَّذين عَنْهُمْ نُقِلَتْ اللُّغَةُ العَرَبيَّةُ، وبِهِمْ أُقْتُدَي، وعَنْهُمْ أُخِذَ اللِّسَانُ العَرَبِيُّ مِنْ بَيْنِ قَبَائِلِ العَرَبِ، هُمْ قيسٌ وتميمٌ وأسدٌ، فَإِنَّ هَؤلاءِ هُمْ الَّذين عَنْهُمْ أَكثرُ مَا أُخِذَ وَمُعْظَمِهِ، وعليهم أتَّكلَ في الغَرِيبِ، وفي الإعرابِ والتَّصريفِ. ثُمَّ هُذيلُ وبعضُ كنانَةَ، وبعضُ الطَّائيين، ولَمْ يُؤخذْ عَنْ غيرِهِمْ مِنْ سائرِ قبائِلِهِمْ.وبِالجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْخَذْ عَنْ حَضَرِيٍّ قَطْ، وَلَا عَنْ سُكَّانِ البَرَارِي؛ مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُ أَطْرَافَ بِلادِهِمْ الَّتِي تُجَاوِرُ سَائرَ الأُمَمِ الَّذِيْنَ حَوْلَهُمْ.

فإنَّه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاعة ولا من غسّان ولا من إياد؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون في صَلاتهم بغير العربية، ولا مِنْ تَغْلب ولا من التَّمر؛ فإنَّهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا من بكر؛ لأنَّهم كانوا مُجاورين للنَّبطِ والفُرْسِ، ولا من عبد القيس؛ لأنَّهم كانوا من سُكَّانِ البَحرينِ مُخالِطين للهِنْدِ والفُرْسِ، ولا مِنْ أَزْدِ عُمانِ؛ لِمُخالَطتهم للهِنْدِ والفُرْسِ، ولا مِنْ أهلِ اليَمَنِ أَصْلاً؛ لِمُخالَطَتِهِمْ الهِنْدَ والحَبَشَةَ وَلِولادَةِ اَلْحَبَشَةِ فيهم، ولا مِنْ حَنِيْفَةَ وسُكَّانِ اليَمَامَةِ، ولَا مِنْ ثقيف وسُكَّانِ الطَّائِفِ؛ لِمُخَالَطَتِهِمْ تُجَّارَ الأُمَمِ المُقيمينَ عندهم، ولا مِنْ حَاضِرَةِ الحِجَازِ؛ لأنَّ الَّذِينَ نَقَلُوا اللُّغَةَ صَادَفُوهُمْ حِيْنَ اِبْتدأُوا ينقلُون لُغَةَ اَلْعَرَبِ قَدْ خَالَطُوا غَيْرَهُمْ مِنْ الأُمَمِ، وَفَسَدَتْ أَلْسِنَتُهُمْ"[٥٦].

وفي ضَوْءِ مَا نبَّه إليه الجاحظُ وما ذكرَهُ ابنُ جِنّي والسُّيوطي نَقْلًا عَنْ الفَارَابِي يُمْكِنُ أَنْ نَقولَ: إنَّ اَلْمعيارَ الَّذِي وَضَعَهُ العُلَمَاءُ لِقَبُولِ لُغَةَ قبيلةٍ مَا هُوَ سَلَامَةُ لُغَةِ هَذِهِ القَبيلةِ مِنْ اَلاخْتِلاطِ بغيرِ العَرَبِ؛ لأنَّ الاخْتِلاطَ بِغَيْرِ العَرَبِ مِنْ الأَعَاجِمِ يُؤَدِّي إِلَى فَسَادِ اَللُّغَةِ وانْحِرَافِ اَلأَلْسِنَةِ عَنْ الصَّوَابِ، وَالأَلْسِنَةُ تتأثَّرُ بما حولها فيلحقها اللَّحنُ، ويتسرَّبُ إليها الخَطَأُ.

والقبائلُ الَّتِي يُحتجُّ بكلامِهَا، وهِيَ: قيسُ، وتميمُ، وأسدُ، ثُمَّ هذيلُ، وبعضُ كنانةِ، وبعضُ الطَّائيين؛ فهؤلاءِ هُمْ الَّذين عَنْهُمْ نُقِلَتْ اللُّغَةُ العَرَبيَّةُ، وَبِهِمْ اِقْتضَي، وعَنْهم أُخِذَ اللِّسَانُ العربيُّ مِنْ بينَ قبائلِ العربِ، والَّذِي يَجمعُ من بَيْنَ هَذِه القَبَائلِ هُوَ تَوَغُّلُهَا فِي اَلْبَدَاوَةِ، وبُعدُهَا عَنْ اَلاخْتِلاطِ بِغَيْرِهَا مِنْ اَلأُمَمِ، واِتِّصَالُهَا بِالأَعَاجِمِ، كَمَا يَجْمَعُ

بينها قُربُهَا مِنْ قُرَيْشٍ؛ لأنَّ قَريشًا -كما علمنا- أفصحُ العربَ، وأجودُهُمْ انتقادًا للأفصح من الألفاظ.

وذهب ابن خلدون إلى أنَّ مقياسَ الفَصَاحَةِ هُوَ القُرْبُ أو البُعْدُ مِنْ قريشٍ، فقالَ فِي مُقدِّمته:"كانتْ لُغَةُ قَرِيشٍ أَفْصَحَ اللُّغاتِ العربيَّةِ وأَصْلَحَهَا؛ لِبُعْدِهَا عَنْ بِلَادِ اَلْعَجَمِ مِنْ جَمِيْعِ جِهَاتِهِمْ، ثُمَّ مَنْ اكتنفَهُمْ مِنْ ثقيف، وهذيل، وخزاعة، وبني كنانة، وغطفان، وبني سعد، وبني تميم. وأمَّا من بَعُد عنهم من ربيعة، ولخم، وجذامة، وغسان، وإياد، وقضاعة، وعرب اليمنِ المُجاورين لأُمَمِ الفُرْسِ والرُّوْمِ والحَبَشَةِ؛ فلمْ تكُنْ لُغَتُهُمْ تَامَّةَ المَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ الأعَاجِمِ، أي: بسببِ مُخالطةِ الأعاجِمِ، وعلى نسبة بُعدهم من قريش كان الاحتجاجُ بِلُغَاتِهِمْ فِي الصِّحَّةِ والفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ العَرَبيَّةِ"[٥٧].

اَلْمَطْلَبُ اَلثَّالِثُ: عِنَايَةُ اَلْجَاحِظِ بِظَاهِرَةِ اَلإِعْرَابِ عِنْدَ اَلنُّحَاةِ:

يُؤَكِّدُ الجَاحِظُ أَنَّ النُّحاةَ العَرَبَ قَدْ اهْتَمُّوا كثيرًا بظاهرةِ الإعرابِ فِي اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ، لِلْمَكَانَةِ العظيمَةِ والدور المحوريّ الَّذي يلعَبُهُ الإعرابُ فِي النَّحْوِ العَرَبِيّ، ولِذَا سُمّى عِلْمَ النَّحْوِ عِنْدَ بَعْضِ العُلماءِ بـ"علمِ الإعْرَابِ"، يقولُ الجَاحِظُ :"ولم أرَ غايةَ النَّحويين إلا كُلَّ شِعْرٍ فيه إعرابٌ ..."[٥٨].

ويقولُ الجَاحِظُ أَيْضًا:"رَأْسُ اَلْخَطَابَةِ اَلطَّبْعُ، وَعَمُوْدُهَا اَلدُّرْبَةُ، وَجَنَاحَاهَا رِوَايَةُ اَلْكَلَامِ، وَحليُّهَا اَلإِعْرَابُ، وبَهَاؤُهَا

(٥٥) ينظر: الخصائص (٧/٢) وما بعدها .

(٥٦) السيوطي، جلال الدين، الاقتراح في أصول النحو، حيدر أباد الدكن، ١٣١٠هـ،(ص٣٢).

(٥٧) ينظر: مقدمة ابن خلدون (٣٠٨/٢) وما بعدها .

(٥٨) البيان والتبيين (٢٥٩/٣).

تَخَيُّرُ اَلأَلْفَاظِ. واَلْمَحَبَّةُ مَقْرونَةٌ بِقِلَّةِ اَلاسْتِكْرَاهِ"[٥٩]. كَمَا يَذْكُرُ اَلْجَاحِظُ فِي هَذَا اَلشَّأْنِ قِصَّةً طَرِيْفَةً لِلدِّلَالَةِ عَلَى مَكَانَةِ اَلإِعْرَابِ عِنْدَ اَلنَّحْوِيينَ، حَيْثُ يَقُولُ:"وَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ النَّحْوِيّينَ رَجُلًا إِلَى اَلسُّلْطَانِ فِي دَيْنٍ لَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيْرَ، لِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمَانِ. فَقَالَ خِصْمُهُ: لَا وَاللهِ أَيُّهَا اَلأَمِيْرُ؛ إِنْ هِيَ إِلَّا ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ، وَلَكِنْ لِظُهُوْرِ اَلإِعْرَابِ تَرَكَ مِنْ حَقِّهِ دِرْهَمًا".[٦٠] ويقولُ الجَاحِظُ أَيْضًا:" وَقَالَ اَلأَصْمَعِي: خَاصَمَ عِيْسَى بنُ عُمَرَ النَّحْوِيُّ الثَّقَفِيُّ رَجُلًا إِلَى بِلالِ بن أبي بُرْدَةَ، فَجَعَلَ عِيْسَى يَتَتَبَّعُ الإِعْرَابَ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ بِلالُ: لأَنْ يَذْهَبَ بَعْضُ حَقِّ هَذَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ تَرْكِ اَلإِعْرَابِ، فَلَا تَتَشَاغَلْ بِهِ، وَاقْصِدْ لِحُجَّتِكَ"[٦١].

وَقَدْ ثَمَّنَ اَلْجَاحِظُ دَوْرَ اَلنُّحَاةِ اَلْعَرَبِ فِي تَسْمِيَاتِهِمْ وَمُصْطَلَحَاتِهِمْ، كما أَكَّد عَلَى أَهَمِيَّةِ عَلَامَاتِ اَلإِعْرَابِ فِي اَلْكَلَامِ وَدَوْرِهَا فِي إِبْرَازِ اَلْمَعْنَى وَتَوْضِيْحِهِ، حَيْثُ يَقُوْلُ:"وَكَمَا سَمَّى اَلنَّحْوِيُّوْنَ، فَذَكَرُوا اَلْحَالَ وَالظُّرُوْفَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لأَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَضَعُوا هَذِهِ اَلْعَلَامَاتِ لَمْ يَسْتَطِيْعُوْا تَعْرِيْفَ اَلْقَرَوِيّينَ وَأَبْنَاءِ اَلْبَلَدِيّين عِلْمَ اَلْعَرُوْضِ وَالنَّحْوِ.

وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ اَلْحِسَابِ قَدْ اِجْتَلَبُوا أَسْمَاءَ جَعَلُوْهَا عَلَامَاتٍ لِلتَّفَاهُمْ".[٦٢]

إِنَّ القَارِئَ لِنَصِّ اَلْجَاحِظِ السَّابِقِ يَلْحَظُ عِدَّةَ أُمُوْرٍ، منها: اَلأَمْرُ الأولُ: تَمثيلُهُ بِمُصْطَلَحَاتٍ بصريَّةٍ، فالحال كان يسميه الكوفيون (القطع)، وأمَّا (الظروف) فسمَّاها الكوفيون (صفات)[٦٣]. والأمر الثاني: أهمية تعلُّم علم النحو وعلامات الإعراب لتعلم العروض العربي والعلاقة العضوية بين العلمين. الأمر الثالث: علامات الإعراب ضروريةٌ للتَّفاهُمِ وتوضيحِ المعنى؛ لِذَا يُقالُ " الإِعْرَابُ فرعُ اَلْمَعْنَى"[٦٤]. الأمر الرابع: الامتنانُ لدورِ النُّحاةِ في وضع علامات الإعراب، ودورهم في تعليم أبناء القرويين والبلديين. وغير ذلك.

ويُؤَكِّدُ الجاحظُ أيضًا أنَّ الاهتمام بتحقيق الإعراب نال عناية العرب بكل طوائفهم متكلمين ونحويين وعلماء وعامتهم، حيث يقول:"وكانوا يروون صبيانهم الأرجاز، ويعلّمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتق اللهاة، ويفتح الجرم[٦٥].

وقد راعى الجاحظ الإعراب في كتبه؛ وهو من هو في الفصاحة والبلاغة والبيان، ولذا نجده يقول:" وإِنْ وجدتم في هذا الكتاب لحنًا أو كلامًا غير مُعربٍ، ولفظًا معدولًا عن جهته؛ فاعملُوا أنّا إنَّما تركنا ذلك، لأنَّ الإعرابَ يبغّضُ هَذَا البَابَ"[٦٦].

اَلْمَبْحَثُ اَلثَّانِي: آَرَاءُ اَلْجَاحِظِ فِي بَعْضِ اَلْمَسَائِلِ اللغوية والنَّحْوِيَّةِ.

اَلْمَطْلَبُ الأَوَّلُ : مِنْ اَلْمَسَائِلِ اَللُّغَوِيَّةِ عِنْدَ اَلْجَاحِظِ.

إِنَّ كِتَابَ البَيَانِ والتَّبيينِ أَقْدَمُ وَأَهَمُّ مُحَاوَلَةٍ لِدِرَاسَةِ عِلْمِ البَيَانِ وَفَلْسَفَةِ اللُّغَةِ. ويُعتبرُ اَلْجَاحِظُ رَائِدًا فِي هَذَا المِضْمَارِ لِمَنْ جَاءَ بعده؛ أمثال ابن فارس وابن جني والسيوطي. وقد سبق فرديناد دي سوسير إلى القولِ بأَنَّ فِقْهَ اللُّغةِ يَجِبُ أَنْ يكونَ فَرْعًا مِنْ عِلْمٍ أوسعَ يَشتملُ على مُختلِفِ أنواعِ الدِّلالاتِ،سَمَّاه الجَاحِظُ علمَ البَيَانِ، حيثُ يقولُ:"والبيانُ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ شيءٍ كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السَّامعُ إلى حقيقته ويهجم على محصوله، كائنًا ما كان ذلك البيانُ، ومن أيِّ جنسٍ كان الدَّليلُ، لأنَّ مدارَ الأمرِ والغايةِ الَّتي يجري القائل والسَّامع إنَّما هو الفهمُ والإفهامُ. فبأيِّ شيءٍ

(٥٩) البيان والتبيين (٥٩/١)

(٦٠) البيان والتبيين (٢/ ١٥٠)

(٦١) البيان والتبيين (٢/ ١٥٠)

(٦٢) البيان والتبيين (١/ ١٣٢).

(٦٣) ينظر: الفرَّاء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن ، تحقيق: احمد يوسف النجاتي ومحمد على النجاروعبد الفتاح شلبي، ٧/١، ١٠، ١٢- ٢٨٦/٢، ٣٣٨، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦ - ٦/٣، ١١، ١٢، ٨٣، ١٠٤، ١٣٢. والعكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، اللباب في علل البناء والإعراب، تحقيق: عبد الإله النبهان، دار الفكر، دمشق،ط١، ١٩٩٥م، (١٦٧/١)، وغيرها.

(٦٤) ينظر: الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١، ١٩٩٥م، (ص٢٨١)، حسان، تمام ، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٦م،(ص١٨٤).

(٦٥) البيان والتبيين (١/ ٢٢٧).

(٦٦) البخلاء، (ص: ٦٧).

بلغتْ الأفهامُ وأوضحتْ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضعِ"[٦٧].

ومن المسائل المهمة التي أولاها الجاحظ اهتمامًا بالغًا الحديث عن اللغة العربية ومكانتها وشرفها والحاجة إليها، وثمَّة سببٌ مُهمٌّ دعَا المُتكلّمين إلى الاهتمامِ بعلمِ البَيَانِ واللُّغةِ العربيَّةِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ لُغةُ القُرآنِ الذي ينطوي على الوحي والشريعه وعليه مدار أبحاثهم، وعلى قدرٍ تُضلعهم منها يكون إدراكهم لمعاني القرآن، وتُمكّنهم من تأويلِ آياتِهِ، وقد عبَّر الجاحظُ عن هذه الناحية بقوله:" فللعربِ أمثالٌ وانتقاداتٌ وأبنيةٌ، وموضع كلام يدلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم. ولتلك الألفاظ مواضع أخر ولها حينئذ دلالات أخر. فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهلِ هَذَا الشَّأْنِ هَلَكَ وأَهْلَكَ"[٦٨].

ويُمكننا أَنْ نُوجزَ أهمَّ المَسَائِلِ اللُّغَوِيَّةِ عِنْدَ اَلْجَاحِظِ مِمَّا يَتَعلَّقُ بدراستنا هذه، فيما يأتي[٦٩]:

أَوّلاً : حَدِيْثُ اَلْجَاحِظِ عَنْ نَشْأَةِ اَللُّغَةِ وَتَطَوُّرِهَا:

اختلفَ العُلَمَاءُ فِي مسألَةِ نشأةِ اللُّغةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهَا تَوقيفيَّةٌ، ومِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّها غريزةٌ كلاميَّةٌ، أو نشأتْ عَنْ طريقِ المُحَاكَاةِ، ومنهم مَنْ يرى أَنَّها نشأتْ عن طريقِ المُواضَعَةِ والاصْطلاحِ[٧٠]، ولقد كان لرأي الجاحظ في نشأة اللغة أثره في هذه المسألة فيمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ.

وينظرُ الجاحظُ في أصلِ اللُّغةِ، ويذهبُ إلى أنها توقيف، أو وحي من الله. فَجَدُّ العربِ إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ أُلْهِمَ العَرَبيَّةُ عَلَى غيرِ التَّلقينِ والتَّمرينِ؛ وهُوَ فِي الرَّابعةَ عشرةَ من عُمْرِهِ. ويُقدِّمُ عِدَّةَ أَدِلَّةٍ عَلَى أَنَّهَا توقيفٌ: مِنْهَا: كلامُ عيسى في المَهْدِ، وإنْطاقُ اللهِ يحيى بالحِكْمَةِ صبيًّا، وكَلامُ حَوَّاءَ وآدمَ. ومعنى ذلك أنَّ الإنسانَ يَحتاجُ لِيَتَفَاهَمَ مَعَ بَنِي جِلْدَتِهِ إلى اللُّغَةِ، وحَوَّاءُ وآدمُ لَمْ يُعلِّمْهُمَا أَحَدٌ اللُّغَةَ، فَكَانَ لابُدَّ مِنْ أنِ يُلْهِمَهُمَا اللهُ إيَّاهَا. وإذا لم يكنْ إسماعيلُ أَوَّلَ عَرَبِيٍّ تَكَلَّمَ العربيَّةَ؛ فينبغي أَنْ يكونَ ثَمَّةَ أبٌ آخرُ للعربِ، كَانَ أَوَّلَ عربيٍّ مِنْ جميعِ بنِي آدمَ تكلَّمَ العربيَّةَ. ومنها ما تفوّه به ذئبُ اهبان بن أوس، وغرابُ نوح وهُدهدُ سُليمانَ، والنَّملةُ وحِمَارُ عُزيز، وقد أنطقَ اللهُ هَذِهِ الحَيَوانَاتِ بِقُدْرَتِهِ وَسَخَّرَهَا لِمَعْرِفَتِهِ، فِلِمَ لا يكونُ الإنسانُ مِثْلَهَا؛ قَدْ أَنْطَقَهُ اللهُ بِمَشِيْئَتِهِ؟[٧١] ويقولُ الجَاحظُ:"وَرَوَى قيسُ بنُ الرَّبيعِ، عَنْ بعضِ أشياخِهِ، عَنْ ابنِ عبَّاسٍ: إنَّ اللهَ أَلْهَمَ اِسْمَاعِيْلَ العَرَبيَّةَ إِلْهَامًا[٧٢]".

وثَمَّةَ دليلٌ آخرُ على أنَّ الله مَصْدَرُ اللُّغةِ، هُوَ وُجُوْدُ ألفاظٍ في القُرآنِ لَمْ يَعْرِفْهَا عَرَبُ الجَاهليَّةِ، إنَّهَا مِنْ اختراعِ اللهِ الَّذِي أوحَى بِهَا إلى النَّبي. يقولُ مُشيرًا إلى ذلك:"وقد علمنا أنَّ قولهم لَمْ يحجْ: صرورةً، ولِمْ أدرك الجاهلية والإسلامَ: مُخْضَرمٌ، وقولهم لكتابِ اللهِ: قرآنًا، وتسميتهم للتمسُّح بالتُّرابِ: التَّيمُّم، وتسميتهم للقاذف بفاسقٍ. إنَّ ذلك لم يكنْ في الجاهلية.[٧٣] وإذا كان للنابغة أن يبتدئ الأسماء على الاشتقاق من أصل اللغة كقوله «والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد» وحتَّى اجتمعت العرب على تصويبه وعلى اتِّباعِ أثره، وعلى أنَّها لُغَةٌ عربيَّةٌ، فاللهُ الذي هو أصلُ اللُّغةِ أحقُّ بذلك» [٧٤]. ويبدو أنَّ الجاحظ استند في مذهبه إلى القرآن والسماع ونظريته القائلة أنَّ المعرفة تُحدثُ طباعًا. وقد اقتفى أثره ابن فارس في كتابه «الصاحبي في فقه اللغة»[٧٥]، ولكن خالفه ابن جني الذي قال: إنَّ اللغة اصطلاح[٧٦]، والسيوطي الذي قال: إنَّها تقليدٌ[٧٧].

---

(٦٧) البيان والتبيين (٥٥/١).

(٦٨) الحيوان (١٥٤/١).

(٦٩) اعتمدت هذه الدراسة في هذا المبحث بصورة رئيسة على المقدمة العامة لكتاب البيان والتبيين، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

(٧٠) ينظر في ذلك مثلاً: ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة،(٤١/١).

(٧١) ينظر: البيان والتبيين (١٩٦/٣) أصل العرب ولغتهم .

(٧٢) البيان والتبيين (١٩٥/٣) .

(٧٣) الحيوان (٢٨٠/٥)، وينظر: البيان والتبيين (٢٠/١).

(٧٤) الحيوان (٢٨١/٥).

(٧٥) ينظر: الرازي، أحمد بن فارس،الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة،(ص١٣).

(٧٦) ينظر: الخصائص (٤١/١).

(٧٧) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م(١٢/١).

ولكن أبا عثمان الجاحظ لم يستطعْ أن يُنكرَ ما طرأَ على اللُّغةِ العربيَّةِ مِنْ تطوُّر. فقد دخلت عليها ألفاظٌ أعجميَّةٌ؛ بسببِ اختلاطِ العربِ بغيرهم مِنْ الشُّعُوبِ. فأهلُ المدينةِ لَمَّا نَزَلَ فيهم ناسٌ مِنْ الفُرْسِ، عَلَقُوا بألفاظِ فارسية فسموا البطيخ الخربز، والسميط الرزدق، والمصوص المزوز. وكذلك أهل الكوفة تأثروا بلغة الفرس الذين احتكوا بهم فسموا المسحاة البال وسموا الحوك الباذروج، وسموا القثاء خيارًا الخ ..[٧٨].

وهناك ألفاظٌ جديدةٌ أوجدها المُتكلِّمون وعلماء اللغة في العصر العباسي عن طريق الاشتقاق أو النحت أو الاصطلاح للتعبير عن المعاني الفلسفية والعلمية الجديدة مثل: الجوهر والعرض والهوية والهذية الخ. يقول الجاحظ موضِّحًا هذه الناحية:"... وهم المُتكلِّمون تخيَّروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقُّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحُوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسمٌ، فصاروا في ذلك سلفًا لكُلِّ خلف، وقدوة لكل تابع. ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس وليس، وفرَّقُوا بين البُطلانِ والتَّلاشي، وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك. وكما وضع الخليلُ بن أحمد لأوزانِ القصيدِ وقِصَارِ الأرجازِ ألقابًا لم تكنْ العربُ تتعارفُ على تلك الأعاريضِ بتلك الألقابِ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك، وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف. وقد ذكرت العرب في أشعارها السناد والإقواء والإكفاء، ولم أسمع بالإيطاء. وقالوا في القصيد والرجز والسَّجع والخطب، وذكروا حروف الرَّوِيّ والقوافي، وقالوا: هذا بيت وهذا مِصراعٌ ... "[٧٩].

وقد شعر الجاحظ بثقل الحمل الذي حملته اللغة العربية عند ما نقلت إليها مختلف العلوم المعروفة في اللغات اليونانية والفارسية والهندية، ودعا إلى عدم تكليف اللغة ما ليس في طاقتها، وقد عبر عن ذلك بقوله:" وليس ينبغي أن نسوم اللغات ما ليس في طاقتها ونسوم النفوس ما ليس في جبلتها، ولذلك يحتاج صاحب المنطق إلى أن يفسره لمن طلب من قبله علم المنطق"[٨٠]. ويشير الجاحظ إلى حركة الترجمة التي نشطت في عصره، ويرى أنَّ الترجمان يجب أن يكون عالمًا باللغة المنقولة والمنقول إليها[٨١]. ويرى أنَّ الشعرَ لا يُترجمُ، وإذا تُرْجِمَ ذهَبَ سِحْرُهُ، وتقطَّعَ نَظْمُهُ، وبَطُلَ وَزْنُهُ، وَذَهَبَ حُسْنُهُ[٨٢].

ثانيًا : اَلْحَدِيْثُ عَنْ آلَةِ اللُّغَةِ:

لقد فصَّل الجاحظُ الحديثَ عَنْ آلةِ اللُّغةِ؛ وهو اللِّسانُ، فهو آلةُ الكلامِ الرَّئيسيَّةُ، وكُلَّما كانَ سليمًا جاءَ اللَّفْظُ صحيحًا، وكُلَّما ازدادَ حَجْمُهُ؛ بحيثُ يصكُّ جوانبَ الفَمِ، ويملأهُ لمْ يترك خلاءً لمرور الهواء كان أوفى بالغاية. وفي هذا الرأي يوافق الجاحظ الفيلسوف اليوناني أرسطو، ويُطبِّقُ ذلك على الإنسانِ والحيوانِ. يقولُ الجاحظُ:"وقال أهلُ التَّجرُبَةِ، إذا كانتْ في اللَّحمِ الذي في مغارزِ الأسنانِ تشميرٌ وقصر سُمْكٍ ذهبتْ الحروفُ وفَسَدَ البيانُ، وإذا وَجَدَ اللِّسانُ من جميعِ جهاتِهِ شيئًا يقرعُهُ ويصُكَّهُ، ولم يمرْ في هواءٍ واسعِ المجالِ، وكان لسانه يملأ جوبةَ فَمِهِ، لم يضرُّه سقوطُ أسنانِهِ إلا بالمقدارِ المُغتفرِ، والجزءِ المُحتملِ. ويؤكد ذلك قول صاحب المنطق، فإنَّه زعم في كتاب الحيوان أنَّ الطائر والسبع والبهيمة كُلَّما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصحَ وأبينَ وأحكى لِمَا يُلَقّن، ولِمَا يسمعُ؛ كنحو الببغاء والغداف وغراب البين وما أشبه ذلك..."[٨٣]. وقد كان الجاحظ في هذا الشأن رائدًا لمَنْ جاء بعده من علماء اللغة العرب وغيرهم؛ وخاصة علم الأصوات العربية.

ثالثًا: اَلْحَدِيْثُ عَنْ طَبَقَاتِ اَللَّفْظِ وَصِفَاتِهِ فِي اَللُّغَةِ:

يُقسِّمُ الجاحظ اللفظ إلى طبقات، كما ينقسم الناس أنفسهم إلى طبقاتٍ، فمنه الجذل والسخيف، ومنه المليح والحسن، ومنه القبيح والسمج، والخفيف والثقيل. ومن حيث الفصاحة يوجد ثلاث مراتب: الغريب الوحشي،

(٧٨) البيان والتبيين (٢٦/١).

(٧٩) البيان والتبيين (٢١/١)، و(٨٨/١).

(٨٠) ينظر: الحيوان (٣٢٣/٦).

(٨١) ينظر: الحيوان (٥٤/١).

(٨٢) ينظر: الحيوان (٥٣/١)، والبيان والتبيين (٢١/١).

(٨٣) البيان والتبيين (١٥/١) المقدمة العامة.

والفصيح، والسوقي المبتذل. وخيرها اللفظ الفصيح الذي يقع وسطًا بين الغريب الوحشي والسوقي المبتذل" وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًّا وساقطًا سوقيًّا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًا إلا أن يكون المتكلم بدويًّا أعرابيًّا، فإن الوحشي من المتكلم يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السُّوقي رطانة السوقي..."[٨٤].

وَمِنْ صِفَاتِ اللَّفْظِ الفَصِيْحِ تَوافُقُ الحُرُوْفِ ضِمْنَ الكلمةِ الواحدةِ. وقد لاحظَ أبُو عثمانَ الجاحظُ أنَّ في العربيَّةِ حُرُوفًا لا تجتمعُ، فالجيمُ لا تُقارنُ الطَّاءَ ولا القاف ولا الغين في تقديم أو تأخير، والزاي لا تقارن الطاء أو السين أو الضاد أو الدال بتقديم أو تأخير.[٨٥] وتقتضي الفصاحةُ أيضًا عدمَ تنافُرِ الكلماتِ ضِمْنَ الجُملةِ الواحدةِ. وإذا تنافَرَتْ الألفاظُ صَعُبَ النُّطقُ بها، وَبَدَتْ غيرَ مُتلائِمَةٍ وغيرَ مُتوافقةٍ. ومن ذلك قول الشاعر[٨٦]:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وقد ظنَّ البعضُ لجهلِهِمْ بعلمِ البَلاغَةِ أنَّ هذا البيتَ مِنْ أشعارِ الجنِّ؛ لأنَّ المَرْءَ لا يستطيعُ إنشادَهُ ثلاثَ مَرَّاتٍ في نسقٍ واحدٍ دُوْنَ أَنْ يُتَعْتِعَ أو يتلَجْلَجَ[٨٧].

ومِقياسُ الفَصَاحةِ في نظرِ الجاحظِ القرآنُ وكلامُ الأَعْرابِ، إذْ فيهما تَحَقَّقَتْ الفَصَاحَةُ بأعلَى مُستوياتِهَا، فَاعْتَبَرُا المِثَالَ الأعلَى للكَلَامِ الفَصِيْحِ. فَكَلُّ كلامٍ أشبهها عدّ فصيحًا، وكُلُّ كلامٍ اختلفَ عنهمَا نأى عن الفَصَاحَةِ. يقولُ الجاحظُ مُشيرًا إلى ذلك:"قال أهلُ مكةَ لمُحمَّدِ بنِ مناذر الشَّاعر: ليستْ الفَصَاحَةُ لكم مَعَاشِرَ أهلِ البَصْرَةِ لُغَةً فصيحةً، إنَّما الفَصَاحَةُ لنا أهلَ مَكَّةَ. قال ابنُ مُناذرٍ: أمَّا ألفاظنا فأحكى الألفاظِ للقُرْآنِ وأكثرها له مُوافقةً، فضعُوا القرآنَ بَعْد هَذَا حَيْثُ شِئْتُمْ"[٨٨]، ويُفهمُ مِنْ هَذَا أنَّ الحُكمَ فِي الخِلافِ بينَ فَصَاحَةِ لُغَةِ أَهْلِ مكَّةَ والبَصْرةِ إنَّمَا هُوَ القَرْآنُ. وكذلك الحالُ بالنِّسبةِ إلى لُغَةِ أهلِ الباديَةِ الَّتي أُعتبرتْ مَرْجِعًا في الفَصَاحَةِ "وشأنُ عَبْدِ قيسٍ عَجَبٌ، وذلك أنَّهُمْ بَعْدُ مُحاربةِ إياد تفرَّقُوا فِرْقَتين: ففرقةٌ وقعتْ في عثمانَ وشقِّ عُمانَ، وهُمْ خُطَبَاءُ العَرَبِ، وفرقةٌ وقَعَتْ إلى البَحْرَيْنِ وشَقِّ البَحْرِيْنِ؛ وهُمْ أَشْعَرُ قَبيلِ العَرَبِ، ولَمْ يَكُوْنُوا كذلك حينَ كانُوا فِي سُرَّةِ البَادِيَةِ وفِي مَعْدَنِ الفَصَاحَةِ. وهَذَا عَجَبٌ"[٨٩].

رَابِعًا: اَلْحَدِيْثَ عَنْ بَعْضِ عُيُوبِ اَللُّغَةِ وَعِلَلِ اللِّسانِ:

لقد تحدَّث الجاحظُ عن بعضِ عُيوبِ اللُّغةِ وعلل اللسان، ومن ذلك حديثه عن: الحَبْسَةِ واللَّثْغَةِ اللَّكْنَةِ واللَّحْنِ والتَّمْتَمَةِ والفَأْفَأَةِ واللَّفَفِ واللَّجْلَجَةِ والحَكْلَةِ، ومن ذلك حديثه الآتي عن بعضها:

١- الحَبْسَةُ: عقدةٌ تُصيبُ اللِّسان فلا يستطيع المرء النطق بسهولة، ويثقل عليه الكلام، فينتج عن ذلك عدم القدرة على التعبير جيّدًا عن أفكاره وإفهام الآخرين. وكان موسى عليه السلام يُعاني من هذه العقدة، فسأل الله حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته أن يحلَّ تلك العقدة التي كانت في لسانه أو الحبسة التي كانت في بيانه[٩٠].

٢- اللَّكْنَةُ:هي إدخالُ حروفِ العَجَمِ في حُروفِ العَرَبِ. وهي علةٌ تقع للأعاجم الذين يتكلَّمُون العربية. فالنبطي الذي نشأ في سواد الكوفة مثلا قد يتكلم العربية المعروفة ويتخير ألفاظه وتجود معانيه، ومع ذلك يعلم السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي، وكذلك الخراساني والأهوازي. والسندي الذي تعلم العربية كبيرا يجعل الجيم زايًا، والنبطي يجعل الزاي سينا فيقول سورق بدل زورق، ويجعل العين همزة. وهذه اللثغة التي تعتري الأعاجم تختلف عن اللثغة التي تعتري الصبيان أو الشيوخ ومن ينشأ من العرب مع العجم. وأهم مظاهر هذه اللكنة أبدل السين شيئا والطاء تاء والحاء هاء. «قال فيل مولى زياد لسيده مرة «اهدوا لنا هِمار وهش» يريد حمار وحش، فقال زياد: ما تقول

(٨٤) البيان والتبيين (١/ ١٦) .

(٨٥) البيان والتبيين (١/ ١٦) .

(٨٦) ينظر: البيان والتبيين (٤/١)، ودلائل الإعجاز (ص٦٠)، والإيضاح في علوم البلاغة (ص٩).

(٨٧) ينظر: البيان والتبيين (٤٩/١).

(٨٨) البيان والتبيين (٢٥/١).

(٨٩) ينظر: البيان والتبيين (١/ ٦٦) .

(٩٠) البيان والتبيين (٥٦/١).

ويلك! قال: اهدوا إلينا أيرًا، يريد عيرًا، فقال زياد: الأول أهون، وفهم ما أراد»[٩١].

٣- اللَّثْغَةُ: أكثر شيوعًا وأقبح مظهرًا، وتقوم بإبدال حرف بحرف آخر، وقد أحصى الجاحظ الحروف التي تدخلها اللثغة فوجدها أربعة هي القاف والسين واللام والراء. فاللثغة التي تعرض للقاف يجعل صاحبها القاف طاء فيقول طلت بدل قلت. واللَّثغةُ التي تعرضُ للسين يجعل صاحبها السين ثاء، فيقول: أبو يكثوم بدل أبي يكسوم، ويقول بثم الله بدل باسم الله. أمَّا اللثغة التي تقع في اللام، فيجعل بعض أصحابها اللام ياء ويقول اعتييت بدل اعتللت، وجمي بدل جمل. ويجعلُ بعضهم الآخر اللام كافًا فيقول: مكعكة في هذا بدل ما العلة في هذا. وأمَّا اللثغة التي تقع في الراء فتتم بأربعة أحرف هي الياء والغين والذال والطاء. ويقول أصحابها عمي بدل عمرو، أو يقول عمغ بدل عمرو، أو يقول مذة بدل مرة، أو يقول مظة بدل مرة [٩٢].

٤- التَّمْتَمَةُ: التَّمتامُ هو الذي يتعتع في التاء.

٥- الفَأْفَأَةُ: الفَأْفَاءُ هو الذي يتعتع في الفاء، والألف هو الذي يدخل بعض كلامه في بعض.

٦- اللَّجْلَجَةُ: اللَّجْلاجُ هو الذي يُطيءُ في كلامه وينقصُ منه.

٧- الحَكْلَةُ: ذو الحكلة هو الذي لا يبين كلامه ويعجز عن اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال[٩٣].

٨- اللَّحن: هو الخطأ في تحريك حروف الكلمة من ضم وكسر وفتح وسكون. وقد شاع اللحن في العصر العباسي بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأعجمية التي أرادت أن تتكلم العربية فلم تستطع المحافظة على سلامتها من الخطأ في اللفظ والحركات. وسوف أتعرَّض لظاهرة اللَّحنِ عندَ الجاحظِ بإيضاحٍ أكثرَ فيما بعد؛ عند حديثي عن أسبابِ وضعِ علمِ النَّحْوِ العربي.

خَامِسًا: تَعَلُّمُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ:

وثَمَّةَ ناحيةٌ أخرى عالجها الجاحظُ هي تعلُّم اللغة. وقد رأى أنَّ ثمَّة صعوبات تعترض المتعلم ترجع إلى طبيعة اللغة ذاتها وكثرة مفرداتها وثقل مخارجها، كما ترجع إلى جهل المتكلم بمدلولاتها. ولكن أعون الأسباب على تعلمها فرط الحاجة إليها[٩٤].

وقد سبق علماء التربية في العصر الحديث إلى دراسة تعددية اللغة وأدرك قبل جان جاك روسو ودكرولي أنَّ اجتماع لغتين أو أكثر على لسانٍ واحدٍ؛ يُسيء إليهما معًا، فلا يستطيعُ المُتكلِّمُ بهما أن يتضلع منهما أو يأمن تنازعهما إياه[٩٥]. ومعنى ذلك أنَّ اللغة الأم تشكل طريقة التفكير لدى الطفل الذي يكتسب اللغة، وليس للفكر سوى طريقة واحدة. وإذا حاولنا تعليمه لغتين أو أكثر تنازعت هذه اللغات السيطرة على تفكيره ونافست اللغات الأخرى في أن تكون هي طريقة التفكير عنده. ولذا نصح دكرولي بأنْ لا نعلم الطفل قبل العاشرة سوى لغته الأم خشية أن تحل محلها لغة أجنبية أخرى.

سَادِسًا: اَللَّفْظُ والصوتُ عِنْدَ اَلْجَاحِظِ:

اللفظُ أهمُّ وسائل البيانِ، وقد تحدث عنه الجاحظ بإسهاب ودرسه دراسة عميقة شاملة. وقوام اللفظ الصوت، فكُلُّ لفظةٍ تتألف من مجموعة مقاطع، وكل مقطع يتألف من مجموعة حروف، وكل حرف عبارة عن صوت. والصوت ينتج عن حركات اللسان في الفم. يقول الجاحظ موضحا ذلك:"والصَّوتُ هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا أو منشورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف"[٩٦].

وسوف أتعرض لموقف الجاحظ من قضية اللفظ والمعني فيما بعد .

(٩١) البيان والتبيين (١/ ٥٣).

(٩٢) البيان والتبيين (١/ ٣٣).

(٩٣) البيان والتبيين (١/ ١٤).

(٩٤) البيان والتبيين (٢١/١) المقدمة العامة.

(٩٥) البيان والتبيين (١/ ٢٢) المقدمة العامة.

(٩٦) ينظر: البيان والتبيين (١٥٦).

وبعـدُ، فخلاصةُ القـولِ أنَّ الجاحظ قد تنبّه لعدّةِ مَسائلَ لُغويّةٍ أُخْرَى مُهِمَّةٍ، لا يتسعُ المَقامُ لدراستها، ومنها باختصارٍ شديدٍ:

١- تقريره بعض معايير جودة اللفظ أو التركيب أو الاستعمال اللغوي؛ فالأسير والأشهر والأكثر استعمالا ليس بالضرورة هو الأفضل.

٢- التنبّه إلى مستويين من اللغة: تواصلي، وتداولي، وإسهام الإشارة وما في حكمها في تكوين لغة التواصل، ومزايا اللغتين أو المستويين[٩٧].

٣- علاقة اللفظ بالمعنى، بطريقة تختلف عمّا لدى اللغويين والنحاة.

٤- أنواع الدلالات الخمس على المعاني، وهو شيء، لعلّه اقتبسه من الإمام الشافعي أو غيره، وأحسن توظيفه في الدرس اللغوي.

٥- الإشارة والإسهام بشيء أو أمور تعدّ من علم اللغة النفسي، مما يؤكد عناية العرب بمثل هذا العلم.

٦- إشارات إلى مبادئ من علم اللغة الاجتماعي.

٧- التنبيه إلى قوانين لغوية عامة لا تختص بها لغة دون لغة[٩٨].

اَلْمَطْلَبُ اَلثَّانِي :

مِنْ اَلْمَسَائِلِ اَلنَّحْوِيَّةِ عِنْدَ اَلْجَاحِظِ .

النَّحْو فِي اللُّغةِ الطريقُ والجِهْةُ والقَصْدُ، ومنه نُحْو العربيةِ. وهو إعرابُ الكلامِ العربيّ. أُخِذ مِنْ قولهم: انتحاهُ إذا قَصَدَهُ. وهو انتحاءُ سَمْتِ كلامِ العَرَبِ في تَصَرُّفِهِ من إعرابٍ وغيره؛ لِيلَحقَ به مَنْ ليس مِنْ أهلِ اللُّغَةِ العربيَّةِ بأهلِهَا فِي الفَصَاحَةِ، فَيَنْطِقُ بِهَا؛ وإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ أو إنْ شذَّ بَعْضُهُمْ عَنْهَا رُدَّ بِهِ إِلَيْهَا[٩٩]. وهُوَ في الأصلِ مَصْدَرٌ شائعٌ، أي: نَحَوْتُ نَحْوًا، كَقَوْلِكَ: قَصَدْتُ قَصْدًا ثُمَّ خُصَّ بِهِ انتحاءُ هَذَا اَلْقَبِيْلَ مَعْ اَلْعِلْمِ. وقيلَ: لِقَوْلِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَمَا عَلَّمَ أبا الأَسْوَدِ؛ الاسمَ والفِعْلَ وأبوابًا مِنْ العَرَبِيَّةِ:"اُنْحُ هَذَا النَّحْوِ"[١٠٠]. أو لأنَّ أبا الأسود لَمَّا وَضَعَ مَا وَضَعَ فِي النَّحْوِ وَعَرَضَهُ عَلَى "عَلِيٍّ"، قَالَ"عَلِيٌّ" له: "ما أحسنُ هَذَا النَّحو الذي نَحَوْتَ! ولذلك سُمّي النَّحو نحوًا".

ولكنَّنا نجد "الجاحظَ" يُشيرُ إلى وُجُودِ اللَّفظةِ فِي أيامِ "عُمَرَ"، إِذْ يَقُولُ: "وقَالَ عُمَرُ ﷺ: (تعلَّمُوا النَّحوَ كما تَعلَّمُون السُّنَنَ والفَرَائِضَ)"[١٠١]، وهذا الخَبَرُ يُشْبِهُ خَبَراً آخَرَ نُسِبَ إليه أيضاً، ذَكَرَ أنَّه قالَ :(تَعلَّمُوا إعْرَابَ القُرْآنِ كَمَا تعلمُون حِفْظَهُ)، أو "تَعَلَّمُوا الفَرَائِضَ والسُّنَنَ واللُّحنَ كَمَا تَعْلَمُون القُرآنَ ".... والظَّاهرُ أنَّهم خَلَطُوا بين كَلِمَتَي "اللَّحْن" و"النَّحْو"، ولَوْ فَرَضْنَا أنَّ قَوْلَ الجَاحِظِ صَحِيْحٌ، وكانتْ الكلمةُ هِيَ النَّحْو وغيرُ مُحرَّفَةٍ، دَلَّتْ عَلَى وُجُوْدِ هَذِهِ التَّسميةِ فِي أيامِ الاسلامِ الأُولِ، ووجوده كعلمٍ، عِلْماً أنَّ هَذَا العِلْمَ كان موجودًا قبلَ الإسْلامِ؛ أي: فِي أيامِ الجَاهليَّةِ لَدَى اَلْعَرَبِ... بينما أكثرُ العُلَمَاءِ يَنْسِبُوْنَ ظُهُورَ علمِ النَّحْوِ فِي الإسْلاَمِ، ظَهَرَ بِظُهورِ اَلْحَاجَةِ المَاسَّةِ إليه لضبطِ اللِّسَانِ، وصِيَانَتِهِ مِنْ الخَطَأِ، ولتعليمِ الأعاجِمِ نَمَطُ الكَلَامِ بالعربيَّةِ. ويرى الجاحظُ أنَّ النَّحْوَ مَنْطِقُ العربيَّةِ، فَفِيْهِ يتبيّنُ وَجْهُ تَصَرُّفِ الألفاظِ في المَعَانِي.[١٠٢]

وَتَأْتِي مَكَانَةُ تَعَلُّمِ النَّحْوِ عِنْدَ اَلْجَاحِظِ بَعْدَ اَلْقُرْآنِ الكريمِ مُباشرةً، وَيُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ قِصَّةٍ طَرِيفةٍ حَكَاهَا اَلْجَاحِظُ، حَيْثُ يقولُ:"عَبَرْتُ يَوْمًا عَلَى مُعلِّمِ كُتَّابٍ فَوَجَدْتُهُ فِي هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ وقِمَاشٍ مِلِيحٍ، فَقَامَ إِلَيَّ وأَجْلَسَنِي مَعَهُ، فَفَاتَحْتُهُ فِي اَلْقُرْآنِ فَإِذَا هُوَ مَاهِرٌ، فَفَاتَحْتُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ النَّحْوِ فَوَجَدْتُهُ

(٩٧) ينظر: بوقرة، نعمان، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، مجلة إسلامية المعرفة، عدد (٥٤)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

(٩٨) ينظر: العايد سليمان إبراهيم، وقفات على إبداعاتٍ للجاحظ اللغوية، مقال على موقع (شبكة صوت العربية) على شبكة المعلومات الدولية، بتاريخ ٢٧ أبريل ٢٠١٢م.

(٩٩) ينظر: الخصائص (٣٥/١).

(١٠٠) ينظر: نزهة الألباء (٢/١)، وسير أعلام النبلاء (٨٢/٤)، والفهرست (ص٦٥)، والطبقات (٢٤٠/١)، والمفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (٣٥/١٧).

(١٠١) البيان والتبيين (٢/ ٢١٩).

(١٠٢) ينظر: البيان والتبيين (٥٦/١).

مَاهِرًا، ثُمَّ أَشْعَارِ اَلْعَرَبِ واللُّغَةِ كَامِلًا فِي كُلِّ مَا يُرَادُ مِنْهُ".[١٠٣]

ويقول الثعالبي:"... وكُنْ مع ذاك نحويًا ، وهذا مِمَّا يُنسبُ إلى الجاحظ في تقبيح الآداب، وهو منحولٌ إيَّاهُ كما تقدم في تقبيح العلوم. قيل له: ما تقول في النحو، قال: علمٌ مُخترعٌ ، وقياسٌ مُبتدعٌ، ثقيلٌ على الأسماعِ، قليلُ الإمتاعِ، عِلْمُ مُعْدَمٍ، وصِناعةُ مُعلِّمٍ ..."[١٠٤]. ويُفهمُ مِنْ النَّصِّ الأخيرِ أنَّ الجَاحِظَ نُسبَ إليهِ الإقبالُ عَلَى النَّحْوِ والنُّصْحِ بأنْ يكونَ العربيَّ نحويًا، كَمَا نُسبَ إليهِ وَصْفُهُ للنَّحْوِ بالصِّفَاتِ سَالِفَةِ الذِّكْرِ – وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مَنْحُولاً أَيْضًا - وعلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يُقَلِّلْ اَلْجَاحِظُ مِنْ شَأْنِ النَّحْوِ وأَهَمِيَّتِهِ.

ثَانِيًا: حَدِيثُهُ عَنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ نَشْأَةِ اَلنَّحْوِ اَلْعَرَبِيِّ:

إنَّ المُطَّلِعَ عَلَى تَارِيخِ النَّحوِ العربيّ وأسبابِ نَشْأَتِهِ لِيَعْلَمَ أنَّ السَّببَ الرَّئيسَ فِي بِدَايَةِ التَّفكيرِ لِوَضْعِ عِلْمِ النَّحْوِ العَرَبِيِّ هُوَ اِنْتِشَارُ ظَاهِرَةِ اللَّحْنِ، وَقَدْ أَوْلَى اَلْجَاحِظُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ عِنَايَةً فائقةً فِي كِتَابَةِ "البَيَانِ والتَّبيينِ"، فاللَّحْنُ هُوَ اَلْخَطَأُ فِي تَحْرِيكِ حُرُوفِ الكَلِمَةِ مِنْ ضَمٍّ وكَسْرٍ وفَتْحٍ وسُكُونٍ. وقَدْ شَاعَ اللَّحْنُ فِي اَلْعَصْرِ العَبَّاسِي بِسببِ اختلاطِ العَرَبِ بغيرِهِمْ مِنْ الشُّعُوبِ الأعجميَّةِ الَّتِي أرادَتْ أَنْ تتكلَّمَ العربيَّةَ فَلَمْ تَسْتَطِعْ اَلْمُحافَظَةَ عَلَى سَلامَتِهَا مِنْ اَلْخَطَأِ فِي اللَّفْظِ والحَرَكَاتِ. وَقَدْ أَوْرَدَ اَلْجَاحِظُ أمثلةً كثيرةً علَى هَذِهِ الظَّاهِرةِ اللُّغويَّةِ. يَقُولُ: قَالَ بِشْرُ بْنُ مَرْوَانَ، وعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ عَبدِ العزيزِ لِغُلامٍ لَهُ: أُدْعُ لِي صَالحًا. فقالَ الغُلامُ: يا صالحًا. فقالَ لَهُ بشرٌ: اِلْقِ مِنْهَا ألفَ. قالَ له عُمَرُ: وأنْتَ فَزِدْ فِي أَلِفِكَ أَلِفًا»[١٠٥].

ولقدْ تتبَّعَ الجاحظُ الجُذُوْرَ التَّاريخيَّةَ وبدايةَ ظُهُوْرِ اللَّحْنِ، وأورد أمثلةً كثيرةً على هَذِهِ الظَّاهرَةِ اللُّغويَّةِ، حيثُ يقولُ:"قالُوا: وأوّلُ لَحْنٍ سُمِعَ بالبَادِيَةِ: هَذِهِ عَصَاتِي، وأَوَّلُ لَحْنٍ سُمِعَ بالعِرَاقِ: حَيَّ عَلَى الفَلاحِ".[١٠٦] ولم يقتصرْ اللَّحنُ علَى الأعَاجِمِ الَّذِيْنَ تَكَلَّمُوا العَرَبِيَّةَ ولا عَلَى المُدُنِ الَّتِي كَثُرَ فِيْهَا اَلاخْتِلاطِ بَيْنَ العَرَبِ والأَعَاجِمِ، بَلْ فَشَا بَيْنَ العَرَبِ الأَقْحَاحِ وبينَ أَهْلِ اَلأَمْصَارِ الَّتِي تُعْتَبَرُ مَعْقِلُ العربيَّةِ مِثْلُ المدينةِ، يقولُ الجَاحِظُ:"ثُمَّ اِعْلَمْ أَنَّ أَقْبَحَ اللَّحْنِ لَحْنُ أَصْحَابِ التَّقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورة والتفخيم، وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة، وبقرب مجامع الأسواق. ولأهل المدينة ألسن ذلقة، وألفاظ حسنة وعبارة جيدة، واللحن في عوامهم فاش، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب"[١٠٧].

وَيقولُ الجَاحِظُ أيضًا:" مَرَّ الشَّعبِي بِنَاسٍ مِنْ المَوَالِي يتذَاكَرُونَ النَّحْوَ، فقالَ: لَئِنْ أصلَحْتُمُوْهُ إِنَّكُمْ لَأَوَّلُ مَنْ أَفْسَدَهُ. قَالَ: وتكلَّم عبد الملك بن عمير، واعرابيٌّ حاضرٌ، فقيلَ لَهُ: كيفَ تَرَى هَذَا اَلْكَلَامَ ؟ فقالَ: لَوْ كَانَ اَلْكَلَامُ يُؤْتَدَمُ بَهِ لَكَانِ هَذَا الكَلَامُ مِمَّا يُؤتدَمُ بِهِ"[١٠٨].

وسيطول بنا المقام لسرد ما ذكره الجاحظ عن ظاهرة اللحن، ويمكن الرجوع إلى كتابه البيان والتبيين.

ثَالِثًا: مَوْقِفُ اَلْجَاحِظُ مِنْ تَعَلُّمِ النَّحْـــو:

لَقَدْ أَوْلَى الجَاحِظُ عِنَايَةً ملحوظةً بتعلُّمِ النَّحْوِ؛ لِمَا فِي تَعَلُّمِهِ من أهميَّةٍ عظيمةٍ للمُتعلِّمينَ، فَنَجِدُهُ يقولُ:" وكانَ أيوبُ السِّختياني يقولُ: تعلَّمُوا النَّحْوَ، فإنَّهُ جَمَالٌ لِلْوَضِيْعِ، وَتَرْكُهُ هُجْنَةٌ للشَّرِيْفِ. وقالُ عُمَرُ ﷺ : تعلَّموا النحو كما تعلّمون السّنن والفرائض[١٠٩]. ومن المشهورِ أنَّ تعلُّمَ النَّحْوِ مِنْ العُلُومِ الواجبِ تعلُّمِها لقاريءِ كتابِ اللهِ

(١٠٣) ينظر: الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي، طيب المذاق من ثمرات الأوراق، تحقيق: أبي عمار السخاوي، دار الفتح، الشارقة،١٩٩٧م،(ص:٣٨٨)، واليوسي، الحسن بن مسعود، زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق: محمد الحجي ومحمد الأخضر، الشركة الجديدة - دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، ط١، ١٩٨١م،(١١٦/٣).

(١٠٤) الثعالبي، عبد الملك بن محمد، تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تحقيق: نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، (ص: ٤٩).

(١٠٥) البيان والتبيين (١٤/١).

(١٠٦) البيان والتبيين (١٥١/٢).

(١٠٧) البيان والتبيين (١٢٧/١).

(١٠٨) البيان والتبيين (٤٥/٢).

(١٠٩) البيان والتبيين (١٥١/٢).

ومُفَسِّرِهِ، والمُحدِّثِ، والمتكلم بالعربيةِ عُمُومًا، قال أبو داود السَّنجِي: سمعتُ الأصمعيَّ يقولُ: إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ على طالبِ العلمِ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ النَّحْوَ أَنْ يَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ:«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ» [١١٠]؛ لأنَّه لم يكُنْ يلحنُ، فَمَهْمَا رَوَيْتَ عَنْهُ وَلَحَنْتَ فَيْهِ كَذَبْتَ عَلَيْهِ".[١١١] ويقولُ الجاحظُ:"..ولمَّا قال الخليلُ بن أحمدَ: لا يصلُ أحدٌ مِنْ عِلْمِ النَّحْوِ إِلَى مَا يَحْتاجُ إليه حتَّى يتعلَّم ما لا يحتاجُ إليهِ، قالَ أَبو شمر: إذا كانَ لا يُتوصَّلُ إِلَى مَا يُحتاجُ إليه إلاّ بِمَا لا يُحتاجُ إليه؛ فَقَدْ صَارَ مَا لا يُحتاجُ إليهِ يُحتاجُ إليه"[١١٢].

وقد عقد الجاحظ بابًا في "الرسائل الأدبية" سمَّاهُ "تعليمُ النَّحْوِ والرِّيَاضَةِ"يقول فيه:" وأمّا النّحو فلا تشغل قلبه منه إلّا بقدر ما يؤدّيه إلى السَّلامةِ من فاحشِ اللّحنِ، ومِنْ مِقْدارِ جَهْلِ العَوامِّ فِي كتابٍ إِنْ كَتَبَهُ، وَشِعْرٍ إِنْ أَنْشَدَهُ، وشَيءٍ إِنْ وَصَفَهُ. ومَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مَشْغَلَةٌ عَمَّا هُوَ أَوْلَى بِهِ، وَمُذْهِلٌ عَمَّا هُوَ أَرَدُّ عَلَيْهِ مِنْهُ مِنْ رُوَايَةِ اَلْمَثَلِ والشَّاهِدِ، واَلْخَبَرِ الصَّادِقِ، والتَّعبيرِ البَارِعِ.وإنّما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه، من لا يحتاجُ الى تعرُّفِ جَسيماتِ الأُمُورِ، والاستنباطِ لِغَوامِضِ التَّدبُّرِ، ولمصالحِ العِبَادِ والبِلادِ، والعلمِ بالأركانِ والقطب الذي تدور عليه الرّحى؛ ومن ليس له حظٌّ غيره، ولا معاشٌ سِوَاهُ. وعويصُ النَّحو لا يجري في المُعاملاتِ، ولا يُضطرُّ إليه شيءٌ"[١١٣]. وفي هذا الشَّأنِ قَدَّمَ الجَاحِظُ مُقترحاتٍ تربويَّةٍ هامَّةٍ، لم يَفْطِنْ لها سِوَى عُلَمَاءُ التَّربيَةِ المُحْدَثِين. مِنْهَا ضَرُوْرَةُ مُراعَاةِ المُعلِّمِ مُسْتَوَى الصَّبِي العَقْلِيّ والنُّزُولُ إِلَى مُستواهُ؛ ليتمكَّنَ مِنْ إِفْهَامِهِ مَادَّةَ التَّعْلِيْمِ. ومِنْهَا وُجُوبُ الاقتصارِ فِي تَدْرِيْسِ مَادَّةِ النَّحْوِ عَلَى اَلْقَدْرِ الَّذِي يُفْضِي بِهِ إِلَى السَّلامَةِ مِنْ فَاحِشِ اللَّحْنِ، ويُمكِّنُهُ مِنْ القِرَاءَةِ الصَّحيحةِ والإنْشَادِ اَلْمُستقيمِ.ومِنْهَا مُرَاعَاةُ الطَّبيعةِ والفَصَاحَةِ فِي الكِتَابَةِ والاخْتِصَارِ واسْتِكْرَاهُ العِبَارَةِ اَلْمُعَقَّدَةِ والألفاظِ الوَحْشِيَّةِ الغَرِيْبَةِ. والاهتمامُ بالمَعَانِي أكثرَ مِنْ الألفاظِ[١١٤].

وقد أوصى الجاحظُ إمامُ الأدبِ بعضَ أحبابَهُ، فقال له:"عَلِّمْ وَلَدَكَ مِنْ النَّحْوِ مَا يَعْرِفُ أَنْ يُميِّزَ به بين العِبَارةَ الصَّحيحةَ والعبارةَ الفاسدَةَ، وإيَّاكَ أَنْ تُكثرَ عليه مِنْ النَّحْوِ فإنَّه خبالٌ".[١١٥]

وقد ذكر الجاحظ أنَّ الغرضَ من علمِ النَّحْو إقامة نِظام الكلام، على وفق لغةِ العربِ بلا لحنٍ أو خلط، فما كانَ من هذا العلم يؤدي هذا الغرضَ فهو المطلوبُ، وما زادَ عنهُ فهو فضولٌ مُضن، يُشغلُ عمّا هو أهمُّ وأفيدُ، وتركهُ لما هو أولى منهُ أولى وأحرى، يقول الجاحظ:" إنَّ أصلح الأمور لمن تكلَّف علم الطب ألا يحسن منه شيئا، أو يكون من حُذَّاقِ المُتطبِّبين، فإنَّه إنْ أحسنَ منه شيئًا ولم يبلُغْ فيه المَبالغَ هَلَكَ وأَهْلَكَ أَهْلَهُ. وكذلك العِلْمُ بصناعةِ الكلامِ. وليس كذلك سائرُ الصِّنَاعَاتِ، فليسَ يضرُّ مَنْ أحسنَ بابَ الفاعِلِ والمفعولِ به، وبابَ الإضَافَةِ، وبابَ المَعْرفةِ والنَّكرةِ، أنْ يكونَ جَاهِلاً بسائرِ أبوابِ النَّحْوِ. وكذلك من نظر في علم الفرائض، فليس يضرُّ مَنْ أحكمَ بابَ الصُّلْبِ أَنْ يَجْهَلَ بابَ الجِدِّ، وكذلك الحسابُ. وهذا كثيرٌ"[١١٦].

وعلى الجملة فالنَّحو لا يُستغنى عنه، ولا يُوجدُ بُدٌّ مِنْهُ، إِذْ هُوَ حَلِيّ الكلامِ، وهو له كما قيل: كالمِلْحِ فِي الطَّعامِ[١١٧]، ونجد لرأي الجاحظِ السَّابقِ في تَعلُّمِ

(١١٠) الحديثُ رواه: البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل،الجامع الصحيح، تحقيق:مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م،(٢٢٩٠/٥/ح:٥٨٤٤)، ومسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج،الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، باب: في التحذير من الكذب على رسول الله ، دار الجيل بيروت ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت، (٧/١/ح:٤).

(١١١) ينظر: المزي، يوسف بن الزكي، تهذيب الكمال، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيرو، ط١، ١٩٨٠م، (١٨/ ٣٨٨)، وابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥م،(٨٠/٣٧).

(١١٢) الحيوان (٣٨/١).

(١١٣) الرسائل الأدبية، (ص:٢٥٠).

(١١٤) الرسائل الأدبية، (ص:٢٩).

(١١٥) الحجوي، مُحَمَّد بن الحسين، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٩٩٥،١م، (٤٥٦/٢).

(١١٦) البيان والتبيين (٥٨٧/١).

(١١٧) ينظر:الحريري، مُحَمَّد البصري، مقامات الحريري، تحقيق: يوسف بقاعي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨١م، (ص١٨٣)،الأصفهاني،أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار القلم، بيروت، ١٤٢٠هـ، (١١/١).

النَّحوِ أثرًا عند ابن الأثير في "المثل السائر"، حيثُ يقولُ:"والجهلُ بالنَّحو لا يقدحُ في فَصَاحَةٍ ولا بَلاغَةٍ، ولكنَّهُ يقدحُ في الجهلِ به نفسه؛ لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة، فوجب اتباعهم، ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ما جرى مجراهما، وإنَّما غرضُهُ إيرادُ المعنى الحَسَنِ في اللَّفظِ الحَسَنِ؛ المُتَّصفين بصفةِ الفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ، ولذلك لم يكن اللَّحنُ قادحًا في نفسِ الكلامِ؛ لأنَّه إذا قيل: جاءَ زيدٌ راكبٌ؛ بالرَفْعِ، لو لم يكن حسنًا إلا بأنْ يُقالَ: جاءَ زيدٌ راكبًا؛ بالنَّصبِ، لكانَ النَّحْو شرطًا في حُسْنِ الكَلَامِ، وليس كذلك، فتبيَّنَ أنَّهُ ليسَ الغَرَضُ مَنْ نَظْمِ الشِّعْرِ إقامَةُ إعرابِ كلماتِهِ، وإنَّمَا الغَرَضُ أَمْرٌ وَرَاءَ ذلك".[118] ولكن هذا الرأي لايُقبل على عِلاَّتِهِ، ولامجال لمناقشته لضيق المقام.

ورصد الجاحظ حالة معلم النحو في زمانه، ومكانته بين أقرانه من المعلمين، حيثُ يقول:"إنَّا إذا اكترينا مَنْ يُعلِّمُ صِبيانَنَا النَّحْوَ والغَرِيْبَ قَنَعَ مِنَّا بعشرين دِرْهماً في رأسِ كُلِّ شهرٍ، ولو اكترينا مَنْ يُعلِّمُهم البيانَ لَمَا قَنَعَ مِنَّا بألفَ دِرْهَمٍ. ولَمْ يَقُلْ هَذَا إلا وقد ألف "كتاب البيان"[119]. ولا يعني هذا تقليلاً من شأن علم النحو ومُعلميه إنَّما لكثرة مَنْ يَعلمون النحو وضرورة تعلُّمه وحرص العلماء على تعليمه بأقلِّ الدراهم؛ لعلمهم بأهميته للمتكلم والصبي والدارس وغيرهم، فأصبح مُتاحًا لكثير من الناس، والأمرُ مختلفٌ مع علم البيان. والله أعلم.

ويقول الجاحظُ مُدافعًا عن علماء النحو ومُعلميه ضدَّ مَنْ يتهمهم بالحماقة:" والمعلمون عندي على ضربين منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة، ومنهم رجالٌ ارتفعُوا عن تعليمِ أولادِ الخاصَّةِ إلى تعليم أولاد المُلُوكِ أنفسِهِمْ المُرشَّحين للخِلافَةِ، فكيفَ تستطيعُ أن تزعمَ أنَّ مثل علي بن حمزة الكسائي ومُحَمَّد بن المستنير الذي يُقالُ له قطرب، وأشباهِ هؤلاءِ يُقالُ لهم حَمْقَى؟!! ولا يجوزُ هَذَا القولُ على هؤلاءِ، ولا على الطَّبقةِ الَّتِي دُوْنَهُمْ"[120].

وقد رصد الجاحظ موقف المجتمع العربي من النحويين وعلماء النحو، حيثُ يقولُ:"مرَّ رجلٌ من قريش بفتى من ولد عتاب بن أسيد؛ وهو يقرأ كتاب سيبويه، فقال: أفٍّ لكم! عِلْمُ اَلْمُؤَدِّبِينَ وهِمَّةُ المُحتاجين"[121]. على أنَّ المؤدبين كانوا عندهم على ضربين: أصحاب العلوم، وأصحاب البيان وكانوا يخصُّون هؤلاء بالأثرة، قال ابن عتاب: "يكون الرجلُ نحويًّا عروضيًّا، وقسَّامًا فرضيًا، وحسنَ الكتابةِ جيِّدَ الحِسَابِ، حافظًا للقرآن راوية للشعر، وهو يرضى أن يُعلِّمَ أولادنا بستين درهمًا، ولو أنَّ رجلًا كان حَسَنَ البيانِ حَسَنَ التَّخريجِ للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرضَ بألفِ درهمٍ"[122]. ومن ثم اختص مشاهير العلماء والرواة بتأديب أولاد الخلفاء والأمراء[123].

كما ذكر الجاحظُ بعضَ أسبابِ صُعُوْبَةِ عِلْمِ النَّحْوِ وتَعقيدِهِ، ومن ذلك أنَّ بعضَ المُعلِّمين أو العُلماءِ يتعمَّدُ هذه الصُّعوبةَ ؛ رغبةً في التَّكَسُّبِ، فقد نقلَ الجاحظُ في كتابه (الحيوان) أنَّه قال مُعترضاً لأبي الحسنِ الأخفشِ:" أنتَ أعلمُ النَّاسِ بالنَّحو؛ فَلِمَ لا تجعَلُ كتبَك مفهومة كلَّها؟ وما بالُنا نفهمُ بعضَها ولا نفهم أكثرها؟ وما بالُك تقدِّم بعضَ العويصِ وتؤخِّر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجلٌ لم أضَعْ كتبي هذه لله، وليست هي من كتبِ الدين ولو وضعتُها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلَّت حاجاتُهم إليَّ فيها، وإنَّما كانت غايتي المَنَالة، فأنا أضعُ بعضَها هذا الوضع المفهومَ؛ لتدعوَهم حلاوةُ ما فهموا إلى التماس فهْم ما لم يفهموا، وإنَّما قد كسبتُ في هذا التدبير؛ إذ كنتُ إلى التكسُّب ذهبت"[124]... وهذا سببٌ عجيبٌ ومشهورٌ من أسباب صعوبة بعض الكتب النحوية.

(١١٨) المثل السائر (٣٧/١).

(١١٩) الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، (٢٣٢/١-٢٣٣).

(١٢٠) البيان والتبيين (١٣٧/١).

(١٢١) البيان والتبيين (١/ ٢٠٩)

(١٢٢) البيان والتبيين (١/ ٢٠٩).

(١٢٣) ينظر: تاريخ آداب العرب، الرافعي (٢٦/١) .

(١٢٤) الحيوان (٩٣/١).

اَلْمَطْلَبُ الثَّالِثُ : مَسَائِلُ مُتفرِّقَةٌ ذَاتُ صِلَةٍ بِاللُّغَةِ والنَّحْوِ:

أَوَلاً: الجاحظُ وقَضِيَّةُ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى:

قَضِيَّةُ اللَّفظِ والمَعْنَى مِنْ القَضَايَا المُهِمَّةِ المشهورةِ فِي الدَّرسِ اللُّغَوي بصفةٍ عامَّةٍ، والنَّحويّ والبلاغيّ بصفةٍ خاصَّةٍ، يقولُ ابنُ الأَثيرِ:"ومَوْضُوعُ النَّحْوِ هُوَ الألفاظُ والمَعَاني، والنَّحويُّ يَسألُ عَنْ أحوالِهِمَا فِي الدِّلالةِ مِنْ جِهَةِ الأوضَاعِ اللُّغويَّةِ، وكذلك يجري الحُكْمُ في كُلِّ علمٍ مِنْ العُلُومِ، وبِهَذَا الضَّابطِ اِنْفَرَدَ كُلُّ علمٍ برأْسِهِ، ولَمْ يَخْتلطْ بِغَيْرِهِ، وعلَى هَذَا فَمَوْضُوعُ عِلْمِ البَيَانِ هُوَ الفَصَاحَةُ والبَلاغَةُ، وصَاحِبُهُ يَسْأَلُ عَنْ أَحْوَالِهِمَا اللَّفظيَّةِ والمَعْنويَّةِ، وَهُوَ والنَّحْويُّ يشتركَانِ فِي أَنَّ النَّحْويَّ يَنْظُرُ فِي دِلالَةِ اَلأَلْفَاظِ عَلَى اَلْمَعَانِي مِنْ جِهَةِ اَلْوَضْعِ اللُّغَوِيِّ، وَتِلْكَ دِلَالَةٌ عَامَّةٌ، وَصَاحِبُ عِلْمِ البيَانِ ينظرُ فِي فضيلةِ تلكَ الدِّلالةِ، وهي دِلالةٌ خَاصَّةٌ، والمُرادُ بِهَا أَنْ يكونَ عَلَى هيئةٍ مَخْصُوْصَةٍ مِنْ اَلْحُسْنِ، وذلك أمرٌ وراءَ النَّحْوِ وَالإعْرَابِ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّحْوِيَّ يَفْهَمُ مَعْنَى الكلامِ المَنْظُوْمِ والمَنْثُورِ ويعلمُ مواقعَ إعْرَابِهِ، ومَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لا يَفْهَمُ مَا فِيْهِ مِنْ الفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ، وَمِنْ هَهُنَا غَلَطَ مُفَسِّرُو اَلأَشْعَارِ فِي اِقْتِصَارِهِمْ عَلَى شَرْحِ اَلْمَعْنَى وَمَا فِيْهَا مِنْ اَلْكَلِمَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، وتَبْيين مواضعِ الإعرابِ منها، دُوْنَ شَرْحِ مَا تضمَّنتهُ مِنْ أسرارِ الفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ"[١٢٥].

ولَقَدْ اِهْتَمَّ اَلنُّحَاةُ والبلاغيون بِصُوْرَةٍ كَبِيْرَةٍ جِداً بِالْمَعْنَى، وَلَقَدْ كَانَ اَلْعَرَبُ وَلَا يَزَالُوْنَ يَهْتَمُّوْنَ بِالْمَعْنَى، وَفِي هَذَا الشَّأْنِ يَقُوْلُ اَبْنُ جِنِّي:"اِعْلَمْ أَنَّ هَذَا اَلْبَابَ مِنْ أَشْرَفِ فُصُوْلِ اَلْعَرَبِيَّةِ وَأَكْرَمِهَا وَأَغْلَاهَا وَأَنْزَهِهَا، وَإِذَا تَأَمَّلْتَهُ عَرَفْتَ مِنْهُ وَبِهِ مَا يُؤَنِّقك، وَيَذْهَبُ فِي اَلاسْتِحْسَانِ لَهُ كُلَّ مَذْهَبٍ بِكَ، وَذَلِكَ أَنَّ اَلْعَرَبَ كَمَا تُعْنَى بِأَلْفَاظِهَا فَتُصْلِحُهَا وَتُهَذِّبُهَا وَتُرَاعِيْهَا، وَتُلَاحِظُ أَحْكَامَهَا بِالشِّعْرِ تَارَةً وَبِالْخُطَبِ أُخْرَى، وَبِالأَسْمَاعِ اَلَّتِي تَلْتَزِمُهَا وَتَتَكَلَّفُ اِسْتِمْرَارَهَا فَإِنَّ اَلْمَعَانِي أَقْوَى عِنْدَهَا وَأَكْرَمُ عَلَيْهَا وَأَفْخَمُ قَدْراً فِي نُفُوْسِهَا، فَأَوَّلُ ذَلِكَ عِنَايَتُهَا بِأَلْفَاظِهَا ، فَإِنَّهَا لَمَّا كَانَتْ عُنْوَانَ مَعَانِيْهَا وَطَرِيْقاً إِلَيْهَا وَمِظْهَارِ أَغْرَاضِهَا وَمَرَامِيْهَا؛ أَصْلَحُوْهَا وَرَتَّبُوْهَا، وَبَالَغُوا فِي تَخْيِيْرِهَا وَتَحْسِيْنِهَا"[١٢٦]. فَالْمَعْنَى هُوَ الَّذِي جَعَلَ اَلْعَرَبَ" تَحْمِلُ عَلَى أَلْفَاظِهَا لِمَعَانِيْهَا حَتَّى تُفْسِدَ اَلإعْرَابَ لِصِحَّةِ اَلْمَعْنَى"[١٢٧]، وَلَقَدْ فَطَنَ جُمْهُوْرُ اَلنُّحَاةِ إِلَى هَذَا اَلأَمْرِ، فَالنَّحْو عِنْدَهُمْ " لَيْسَ مُجَرَّدُ قَاعِدَةٍ تُطَبَّقُ، بَلْ بَحْثٌ فِي مَعَانِي اَلتَّرَاكِيْبِ وَأَسْرَارِ حُسْنِهَا وَقُوَّتِهَا، وَإِنْ كَانَ اَلنَّحْو يَنْطَلِقُ مِنْ اَلْمَبَانِي لِلْوُصُوْلِ إِلَى اَلْمَعَانِي"[١٢٨]، لِذَلِكَ يَقُوْلُ اِبْنُ جِنِّي:"رَأَيْتُ غَلَبَةَ اَلْمَعْنَى لِلَّفْظِ وَكَوْنَ اَللَّفْظِ خَادِمًا لِلْمَعْنَى مَشِيْدًا بِهِ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا جِيْءَ بِهِ لَهُ وَمِنْ أَجْلِهِ، وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ اَلطَّرِيْقَةِ مِنْ اَلْحَمْلِ عَلَى اَلْمَعْنَى وَتَرْكِ اَللَّفْظِ، وَتَذْكِيْرِ اَلْمُؤَنَّثِ وَتَأْنِيْثِ اَلْمُذَكَّرِ، وَإِضْمَارِ اَلْفَاعِلِ لِدَلَالَةِ اَلْمَعْنَى عَلَيْهِ، وَإِضْمَارِ اَلْمَصْدَرِ لِدِلَالَةِ اَلْفِعْلِ عَلَيْهِ، وَحَذْفِ اَلْحُرُوْفِ وَالأَجْزَاءِ اَلتَّوَأَمِ وَالْحَمْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ حَمْلاً عَلَيْهِ وَتَصَوُّرًا لَهُ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُوْلُ ذِكْرُهُ وَيُمِلُّ أَيْسَرُهُ فَأَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ وَمَذْهَبٌ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ"[١٢٩].

وفي الوقت الذي غالي فريقٌ من العلماء في الاهتمام بالمعني في مقابل اللفظ كما رأينا؛ نجد أنَّ منهم من غالى في اللفظ واعتبره هو الأساس، وألغى دور المعنى في البلاغة، وهم "اللفظيون" ومنهم: الجاحظ ، وابن سنان الخفاجي، وابن خلدون. ولكن الجاحظ يمكننا تسليط الضوء على موقفه بصورة أقرب، كما يأتي:

وَرَدَ في كتابِ (الحيوان) للجاحظِ قوله "وذهبَ الشَّيخُ إلى استحسانِ المعنى، والمعاني مطروحةٌ في الطَّريقِ؛ يعرِفُهَا العَجَميُّ والعربيُّ والبدويُّ والقَرَوي والمدنيّ وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزنِ، وتخيُّرِ اللَّفظِ وسُهُولَةِ المَخْرَجِ".[١٣٠]وكانتْ عنايةُ الجَاحِظِ على هذا النَّحوِ بِكُتُبِهِ ورسائِلِه وأسلوبِهِ فيها، فَلَمْ تَكُنْ تَجْعَلُهُ يَخرجُ إلى اِلْتِمَاسِ الألفاظِ من حيثُ هي ألفاظٌ، فقد كان يرى أنَّ "شرَّ البُلَغَاءِ مِنْ هَيَّأَ رَسْمَ المَعْنَى قبلَ أَنْ يُهيِّئَ المعنى، عشقًا لذلك اللفظ، وشغفًا بذلك الاسم، حتَّى صار يَجُرُّ إليه المعنى جرًّا، ويلزقه به إلزاقًا، حتَّى كأنَّ الله تعالى لم يخلقْ لذلك المعنى اسمًا غيره"[١٣١]. فالجاحظُ كان يكرهُ العنايةَ

(١٢٥) ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ،(٢٦/١).

(١٢٦) الخصائص، (٢١٥/١).
(١٢٧) السابق (٢١١/٢) .
(١٢٨) حسان، تمام عمر، الأصول(ص٣٤٩).
(١٢٩) الخصائص (٢٣٧/١).
(١٣٠) الحيوان (١٣١/٣).
(١٣١) الرسائل الأدبية، (ص٢٠٦).

البَالغةَ باللَّفظِ، تلك العنايةُ التي تسوقُ صاحِبَهَا إلى حفظِ أساليبَ محفوظةٍ بذاتِهَا؛ يَبْنِي عليهَا مَعَانيهِ، ويَصُوْغُ عَلَيْهَا أفكارَهُ، فَإنَّ ذلك يقودُ الكاتبَ إلى أَنْ يُصبحَ عَبْدًا لِمَجْموعَةٍ مِنْ الألفاظِ يَجُرُّ إليها المَعَانِي، ويَشُـدُّهَا شَـدًّا.

وقد حَكَى الجَاحِظُ عَنْ بشرِ بنِ المُعتمرِ أنَّه قال في وصيته في البلاغة:" إذا لم تجدْ اللَّفظةَ واقعةً موقعها، ولا صائرةً إلى مُستقرِّهَا، ولا حالَّةً في مركزها؛ بل وجدتها قلقةً في مكانها، نافرةً من موضعها؛ فلا تُكرِهُهَا على القرارِ في غيرِ موطنِهَا، فإنَّكَ إذا لم تتعاطَ قريضَ الشِّعرِ الموزونِ، ولم تتكلَّفْ اختيارَ الكلامِ المنثورِ، لم يَعِبْكَ بتركِ ذلك أحدٌ. وإذا أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً فيها عابك مَنْ أنتَ أقلُّ عيباً منه، وأزرى عليك من أنت فوقه. وهذا كلامٌ صحيحٌ يجبُ أَنْ يُقتدَى به في هذه الصِّناعةِ".[١٣٢]

ويرى بعض العلماء أنَّ الذي عناه الجاحظ حيث قال:"وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني والمعاني مطروحة وسط الطريق" هو تلك "الصورة "لا مجرد اللفظ نفسه.[١٣٣] وشرح الجرجاني ذلك بقوله:"المعاني مطروحة في الطريق"، فقال:"إنَّ الجاحظَ يُقارنُ بين الكلم ومادة الصائغ. فهو يصنع من الذَّهبِ خاتمًا والحكم على صنعته ليس من جهةِ الذَّهبِ، وإنَّما من جهة الخاتم. فالمعنى هو المادَّةُ الأوليَّةُ، والإعجازُ هو في الكلامِ"[١٣٤]. ويذكر أنَّ المَعاني المُعتبرةَ عِنْدَ أربابِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ ثلاثةُ أنواعٍ:

الأولُ: معاني النَّحْوِ التي كانَ النَّظْمُ الذي هُوَ الأصلُ فيها عبارةٌ عن توخِّي تلك المَعَانِي على ما صَرَّحَ به عبد القاهرِ الجُرجاني في مواضع من دلائل الإعجاز، منها قوله:" إذا كان لا يكون النظم شيئًا غير توخِّي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، كان من أعجب العجب أن يزعم زاعمٌ أنَّه يطلبُ المزيَّةَ في النَّظمِ، ثُمَّ لا يطلبها في معاني النحو وأحكامه".[١٣٥]

(١٣٢) الخفاجي، سر الفصاحة ، عبد الله بن مُحَمَّد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م،(ص١٧٢).

(١٣٣) ينظر: عباس،إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب،دار الثقافة، بيروت،١٩٨٣م،(ص٤٢٥)،ودلائل الإعجاز(ص٣٣٨).

(١٣٤) ينظر: دلائل الإعجاز (ص٢٥٦).

(١٣٥) ينظر: دلائل الإعجاز (ص٣٩٢).

والنَّوعُ الثَّاني: المعاني الوضعية المعبر عنها في عُرفهم بالمعاني الأولى.

والثالثُ: المعاني المقصودة في المقام، والأغراض التي سيق لأجلها الكلام المعبر عنها بالمعاني الثواني[١٣٦].

ويوضح عبد القاهر الجرجاني هذه الأنواع الثلاثة بقوله:" وإذا عرفت هذه الجملة فهنا عبارةٌ مُختصرةٌ، وهي أنْ نقولَ: المعنى، ومعنى المعنى. نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى آخر". ثم قال بعد التمثيل والتوضيح: "فالمعاني الأول المفهومة من أنفسِ الألفاظ، وهي المعارضُ والوشي والحلي وأشباه ذلك، والمعاني الثواني التي يومأُ إليها بتلك المعاني هي تكسي تلك المعارض وتزين بذلك الوشي والحلي"[١٣٧].

وممَّا يُؤَكِّدُ اهتمامَ الجاحظِ بالمعنى أيضًا كاهتمامه باللفظ ما ذكره مرارًا، ومن ذلك قوله:" ومدارُ الأمرِ على فهمِ المَعَانِي لا الألفاظِ والحقائقِ لا العباراتِ"[١٣٨]، ويقولُ:"وإنَّمَا الألفاظُ على أقدارِ المعانِي، فكثيرُها لكثيرِهَا، وقليلُهَا لقليلِهَا، وشريفُها لشريفِهَا، وسخيفُهَا لسخيفِهَا، والمعاني المُفردةُ البائنةُ بصُورها وجهاتِهَا تحتاجُ مِنْ الألفاظِ إلى أقلَّ ممَّا تحتاجُ إليه المعاني المُشتركةُ والجهاتُ الملْتبسةُ"[١٣٩].

ويقولُ الجاحظُ أيضًا:"ومَنْ أراغَ معنىً كريمًا فليلتمسْ له لفظًا كريمًا، فإنَّ حقَّ المعنى الشَّريفِ اللَّفظُ الشَّريفُ، ومن حَقِّهِمَا أَنْ تصُونَهُمَا عمَّا يُفْسِدُهُمَا ويُهجنُهُمَا، وعمَّا تعودُ مِنْ أجلِهِ أنْ تكونَ أسوأ حالًا منك قبل أن تلتمسَ إظهارهما، وترتهنُ نفسك بملابَستهما وقضاء حقِّهما. فَكُنْ في ثلاثِ منازلَ، فإنَّ أُولى الثَّلاثِ أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، وفخمًا سهلًا، ويكونُ معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا

(١٣٦) ينظر: ابن كمال، باشا، رسالة في تحقيق معنى النظم والصياغة،تحقيق: حامد صادق قنيبي، قسم الدراسات الإسلامية والعربية،جامعة الملك فهد للبترول والعادن ، الظهران (ص: ٢٤) ما بعدها.

(١٣٧) دلائل الإعجاز(ص٢٠٤).

(١٣٨) الحيوان (٥/ ٥٤٢).

(١٣٩) الحيوان (٦/ ٨) ، والبيان والتبيين (١٨/١).

معروفًا، أمَّا عند الخاصَّةِ إنْ كُنْتَ للخاصَّةِ قصدتَ، وإمّا عند العامَّةِ إنْ كُنْتَ للعامَّة أردتَ. والمعنى ليسَ يَشْرُفُ بأنْ يكونَ مِنْ معاني الخاصَّةِ، وكذلك ليس يتّضعُ بأنْ يكونَ من معاني العامَّةِ. وإنَّما مَدَارُ الشَّرَفِ عَلَى الصَّوابِ وإحرازِ المَنْفَعَةِ، مَعَ مُوافَقَةِ الحَالِ، وما يجبُ لكُلِّ مَقَامٍ من المال. وكذلك اللفظ العامي والخاصيّ. فإنْ أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفعم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدَّهماءِ، ولا تجفُو عن الأكْفَّاءِ، فأنت البليغُ التَّامُّ"[١٤٠].

ويقولُ الجاحظُ أيضًا:"وقالَ بعضُ الرَّبّانيين من الأُدَبَاءِ، وأهلِ المَعْرِفَةِ مِنْ البُلَغاءِ ممَّن يَكْرَهُ التَّشادُقَ والتَّعمّقَ، ويُبغضُ الإغراقَ في القَوْلِ، والتَّكلُّفِ والاجتلابِ، ويعرفُ أكثرَ أَدْوَاءِ الكلامِ ودَوَائِهِ، وما يعتري المُتكلِّمِ مِنْ الفِتْنَةِ بِحُسْنِ مَا يَقُوْلُ، وما يعرضُ للسَّامعِ مِنْ الافتتانِ بِمَا يَسْمَعُ، والَّذِي يُورثُ الاقتدارَ مِنْ التَّحكُّمِ والتَّسَلُّطِ، والذي يُمكِّنُ الحاذقَ والمطبوعَ من التَّمويهِ للمَعَانِي، والخَلابَةِ وحُسْنِ المَنْطِقِ، فَقَالَ فِي بَعْضِ مَوَاعِظِهِ:«أُنْذِرُكُمْ حُسْنَ اَلأَلْفَاظِ، وَحَلَاوَةَ مَخَارِجِ اَلْكَلَامِ، فَإِنَّ المَعْنَى إِذَا اِكْتَسَى لَفْظًا حَسَنًا وَأَعَارَهُ البَلِيْغُ مَخْرجًا سَهْلًا، وَمَنَحَهُ اَلْمُتَكَلِّمُ دَلًّا مُتَعَشِّقًا، صَارَ فِي قَلْبِكَ أَحْلَى، وَلِصَدْرِكَ أَمْلَا. والمَعَانِي إِذَا كُسِيَتْ اَلأَلفَاظُ الكريمَةُ، وأُلْبِسَتْ اَلأَوْصَافُ اَلرَّفِيْعَةُ، تَحَوَّلَتْ فِي اَلْعُيُوْنِ عَنْ مَقَادِيْرِ صُوَرِهَا، وَأَرِبَتْ عَلَى حَقَائِقِ أَقْدَارِهَا، بِقَدْرِ مَا زُيِّنَتْ، وَحَسْبَ مَا زُخْرِفَتْ. فَقَدْ صَارَتْ اَلأَلْفَاظُ فِي مَعَانِي اَلْمَعَارِضِ"[١٤١].

وبعدُ، فإنَّ هذا هو الطَّابعُ العام للجاحظ في كتاباته، فهو يُعْنَى بألفاظِهِ ومعانيه جميعًا، دون أنْ يَجُوْرَ أحدُ الفريقين على الآخر أو يحيفَ عليه، وقد دفعه ذلك إلى أن يُعنى بآرائه وأدلته وبراهينه، ومُقدّماته ونتائجه مُتأثِّرًا في ذلك بما لقف من منطقٍ وفلسفةٍ، ومعرفةٍ بالجدلِ والحِوَارِ اللَّذين كانا شائعين في بيئته، ونقصد بيئة المعتزلة، ولعلَّ هذا ما جعل الجاحظَ يقولُ مِنْ بعض الوجُوهِ أنَّ البَلاغَةَ فِي الألفاظِ لا في المَعَانِي.[١٤٢]

• اَلْجَاحِظُ ونظريَّةُ النَّظْمِ :

وَفِي مَوْضوعٍ آخرَ مشهورٍ ذي صِلَةٍ باللَّفظِ والمَعْنَى؛ وهُوَ (نَظَرِيَّةُ النَّظْمِ) التي مِنْ الأمور التي تُؤَكِّدُ اهتمامَ الجاحظِ باللَّفْظِ والمَعْنَى مَعًا، ويرى كثيرٌ من العُلماءِ المُنْصِفِيْنَ أنَّ نظريَّةَ النَّظْمِ المَشْهُوْرَةِ قَدْ وُلِدَتْ مَعَ اَلْجَاحِظِ، وتَبَلْوَرَتْ مَعَ اِبْنِ جِنّي، وَتَأَسَّسَتْ عَلَى يَدِ اَلْجِرْجَانِي قَاعِدَةً بِبِنَةَ اَلْمَعَالِمِ وَاضِحَةَ الأهدافِ، تَأْخُذَ (النحو) بِمَفْهُوْمِهِ الوَاسِعِ أَسَاسًا لِضَبْطِ قَوَاعِدِ سَلامَةِ التَّرْكِيبِ، والنِّظَامِ الدِّلالِي العَامّ.[١٤٣]

وَأَكَّدَ بَعْضُ العُلَمَاءِ أنَّ عبدَالقَاهِرِ الجُرْجَانِي قَدْ أَفَادَ هَذِهِ النَّظريَّةَ فِي كِتَابِ (النُّبُوَّةِ) لِلْجَاحِظِ، إِذْ نُقِلَ عنه قوله: "ولو أنَّ رجلاً قرأ على رجلٍ من خُطبائِهِمْ وبُلغائِهِمْ سُوْرَةً واحدةً، لتبيَّنَ له في نِظَامِهَا ومَخْرَجِهَا مِنْ لَفْظِهَا وَطَابِعِهَا أنَّه عَاجِزٌ عَنْ مِثْلِهَا. ولو تَحدَّى بِهَا أَبْلَغَ العَرَبِ لأَظْهَرَ عَجْزَهُ عنها لغةً ولفظاً"[١٤٤]، فالَّذِي يُرِيدُهُ الجَاحِظُ هُنَا هُوَ مَبْدَأُ "النَّظْمِ" وَإِنْ عبَّرَ عن موقفه بالحديثِ عن اللُّغةِ واللَّفظِ. وإذا كانَ عبدُ القاهرِ قَدْ استمدَّ نظريَّةَ "النَّظْمِ" مِنْ الجَاحَظِ فِي خُطُوطِهَا العَرِيضةِ، فربَّما كان تفسيره للنَّظمِ بأنَّه "إذا رُفِعَ معاني النَّحو وأحكامُه ممّا بينَ الكلمِ حتَّى لا تُرادَ فيها في جملةٍ ولا تفصيلٍ خرجتْ الكَلِمُ المنطوقُ ببعضِها في أثرِ بعضٍ في البيتِ مِنْ الشِّعْرِ والفَصْلِ من النَثْرِ عن أنْ يكونَ لكونها في مواضِعِها التي وُضِعَتْ فيها مُوجبٌ ومُقتضٍ"[١٤٥]، وربَّما كان هذا التَّفسيرُ هُوَ ممَّا اهتدَى إليه عبدُ القاهرِ نَفْسِهِ في نِطَاقِ تِلْكَ النَّظريَّةِ العَامَّةِ.[١٤٦]

---

(١٤٠) البيان والتبيين (١/ ١٢٩).

(١٤١) البيان والتبيين (١/ ٢١٢).

(١٤٢) ينظر: الحيوان (١٣١/٣)، ضيف، أحمد شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة،ط١٢،(ص١٦١).

(١٤٣) منقور، عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م،(ص٢٢٢).

(١٤٤) دلائل الإعجاز (ص٣٦٦).

(١٤٥) دلائل الإعجاز (ص٣٨٢).

(١٤٦) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (ص٤٢٨).

ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ عبدَ القاهر قَدْ تتلمَذَ على آثارِ الجَاحِظِ العلميَّةِ وأفادَ مِنْهُ، ومِنْ ذلك مَا ظَهَرَ أثرهُ جَليًّا فِي "نَظَرِيَّةِ النَّظمِ"، فالنَّظمُ هُوَ توخِّي معانِي النَّحو وأحكامه فيما بين الكَلِمِ مِنْ عَلاقَاتٍ، حَيْثُ يقولُ عبدُ القاهرِ الجُرْجَانِي:"واعلمْ أَنْ ليسَ النظُم إلا أنْ تضعَ كلامَك الوَضْعَ الذي يَقتضيهِ علمُ النّحو وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه وتعرفَ مناهجَهُ التي نُهِجَتْ فلا تزيغُ عنها وتحفَظُ الرُّسومَ التي رُسِمتْ لك فلا تُخلَّ بشيءٍ منها"[١٤٧]. وهَذَا التَّعريفُ الشَّاملُ يُوضِّحُ مَدَى العَلاقَةِ بَيْنَ عِلْمِ النَّحْو وعلم المَعَانِي في تَحْديدِ نَظَرِيَّةِ النَّظْمِ.

يقولُ الجاحظُ:"لأنَّ العربَ أشد فخرًا ببيانِهَا، وطولِ ألسنتِهَا، وتصريفِ كلامِهَا، وشدَّةِ إقتدارها. وعلى حسب ذلك كانت زرايتها على كُلِّ مَنْ قَصَّرَ عن ذلك التَّمام، ونَقَّص من ذلك الكمالِ. وقد شاهَدُوا النَّبي ﷺ وخُطَبَهُ الطِّوَالَ فِي المَوَاسِمِ الكِبَارِ، ولَمْ يَطُلْ الْتِمَاسًا للطِّولِ، ولا رغبةً في القُدرةِ على الكَثِيرِ، ولكنَّ المَعَانِي إذَا كَثُرَتْ، والوُجُوهُ إذا افْتَنَّتْ، كَثُرَ عَدَدُ اللَّفْظِ، وإنْ حُذِفَتْ فُضُوْلُهُ بِغَايَةِ الْحَذْفِ[١٤٨].

وبعدُ، فكلُّ ما سبقَ يُؤَكِّدُ أنَّ الجاحظَ يهتمُّ بالمَعْنى واللَّفظِ مَعًا دُوْنَ تمييزٍ بينهما .

ثانيًا: الْجَاحِظُ وَبَعْضُ أُصُوْلِ النَّحْـو (السَّماعِ).

أصول النحو:هي مبادئ وتطبيقات قديمة قدم علم النحو؛ لأنَّ الرَّفْضَ والقَبُولَ والتَّرجيحَ وما إلي ذلك كُلُّه يرجعُ إلي أُصولٍ، إنْ لَمْ تَكُنْ مَكتوبةً فهِي مَعلُومَةٌ مُقرَرَةٌ يرجعُ إليها النُّحَاةُ، وقد ذكرَ النُّحَاةُ مُعْظَمَهَا في ثنايا دراستِهِمْ لِمَسَائلِ لُغَوِيَّةٍ كثيرةٍ، وتتلخَّصُ هَذِهِ الأُصُولُ فِي ما يلي:(السَّمَاعُ، والقِيَاسُ، والاسْتِحْسَانُ، والإجْمَاعُ، وَاسْتِصْحَابُ الحَالِ). وبمُرُورِ الأيامِ وتَوَالِي الدِّرَاسَاتِ دَوَّنَ النُّحَاةُ هَذِهِ الأُصُولَ فِي مُؤَلَّفَاتِهِمْ، وأفْرَدُوا لها الفُصُولَ والأبوابَ، بَلْ خَصَّصُوا لَهَا مُؤَلَّفاتٍ خاصَّةً بِهَا؛ كَمَا فَعَلَ ابْنُ السَّرَّاجِ فِي الأُصُولِ فِي النَّحْو، ولُمَعِ الأدلَّةِ لابن الانباري ،

(١٤٧) دلائل الإعجاز(ص٧٧).

(١٤٨) البيان والتبيين (٢٦٢/٣).

والإيضاح في علل النحو للزجاجي، والاقتراح في أصول النحو للسيوطي، وغير ذلك الكثير.

- **مَوْقِفُ الْجَاحِظِ مِنْ السَّمَاعِ: السَّماعُ:** هُوَ الكَلامُ العربيُّ الفصيحُ، المَنْقُولُ بالنَّقْلِ الصَّحيحِ الخَارِجِ عَنْ حَدِّ

القِلَّةِ إلي حَدِّ الكَثْرَةِ[١٤٩]، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ السَّمَاعَ يَشْمَلُ كُلَّ مَا ثَبَتَ عَنْ العَرَبِ مِنْ كَلامِ مَنْ يُوْثَقُ بِفَصَاحَتِهِمْ؛ فَشَمَلَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ القُرْآنَ الكريمَ؛ وكلامَ نَبِيَّهُ ﷺ، وكلامَ العَرَبِ قبلَ بِعْثَتِهِ، وفِي زَمَنِهِ وَبَعْدَهُ، إلي أنْ فَسَدَتْ الأَلْسِنَةُ بِكَثْرَةِ المُوَلَّدِيْنَ، نَظْمًا ونَثْرًا عَنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ"[١٥٠]. ويَخْرُجُ عَنْ السَّمَاعِ مَا جَاءَ شَاذًّا؛ كَكَلامِ غَيْرِ العَرَبِ أَوْ كَلامِ المُوَلَّدِينَ، وغيرِهِمْ؛ وَلَقَدْ أَجْمَعَ النُّحَاةُ العَرَبُ والعُلَمَاءُ عَلَي الأَخْذِ بِالسَّمَاعِ عَنْ العَرَبِ؛ لأَنَّ النَّحْوِ مَبْنِيٌّ أَوَّلًا عَلَي السَّمَاعِ عَنْ العَرَبِ، فَالقَوَاعِدُ النَّحْوِيَّةُ أَخَذَتْ مِنْ كَلامِ العَرَبِ قَبْلَ نَشْأَةِ النَّحْوِ واسْتِقْرَارِ قواعِدِهِ؛ بِهَدَفِ حِمَايَةِ كَلامِ العَرَبِ بَعْدَ نشأةِ النَّحْوِ إلي يومنا هذا.

وَبَعْدُ، فإنَّنَا نَقِفُ هنا باختصارٍ على مَوْقِفِ الجَاحِظِ مِنْ السَّمَاعِ أَهَمِّ أصلٍ نحويٍّ، وذلك على النحو الآتي:

إنَّ موقفَ الجاحظِ مِنْ السَّماعِ لا يختلفُ عن موقفِ جُمهورِ العُلماءِ فِي هَذَا الشَّأْنِ، يقولُ الجاحظُ:"فالَّذِي لَمْ يأخُذْ فينا بحُكمِ القُرْآنِ ولا بأدَبِ الرَّسُولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامِ، ولَمْ يَفزَعْ إلى مَا فِي الفِطَنِ الصَّحيحَةِ، وإلَى مَا تَوْجِبُهُ المَقَايِيسُ المُطَّرِدةُ والأمثالُ المَضْرُوبَةُ والأشعارُ السَّائرةُ أولَى بالإساءةِ وأحقُّ باللائمَةِ[١٥١]، ويصفُ الجاحظُ حَالَ العَالِمِ ومَنْهَجِهِ عِنْدَ التَّعَاطِي مَعْ السَّماعِ والقياسِ؛ قَائِلاً:"وَمَتَى خَرَجَ مِنْ آيِّ القُرْآنِ صَارَ إلى الأَثَرِ، وَمَتَى خَرَجَ مِنْ أَثَرٍ صَارَ إلَى خَبَرٍ ثُمَّ يُخرجُ مِنْ الخَبَرِ إلَى شِعْرٍ، ومِنْ الشِّعْرِ إلى نَوَادِرِ، وَمِنْ النَّوَادِرِ إلى حُكْمِ عَقْلِيَّةِ ومَقَايِيسَ سِدادٍ ثُمَّ لا يتركُ هَذَا البابَ"[١٥٢]. ثُمَّ يُلْزِمُ الجاحظَ نَفْسَهُ بِهَذَا الْمَنْهَجِ، حيثُ يقولُ:"كُنْتُ لا أفزَعُ فيه

(١٤٩) الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن، لمع الأدلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، منشورات الجامعة السورية،١٩٥٧م،(ص٩٥).

(١٥٠) الاقتراح، (ص١٧).

(١٥١) الحيوان (١٦/١).

(١٥٢) الحيوان (٩٣/١).

إلى تلقُّطِ الأَشْعَارِ وتتبُّعِ الأمثالِ، واستخراجِ الآيِ مِنْ القُرْآنِ والحجَجِ من الرِّواية مع تفرُّقِ هذه الأمورِ في الكتب"[١٥٣].

• مَوْقِفُ الْجَاحِظِ مِنْ الْقُرْآنِ وَالقِرَاءَاتِ:

إنَّ مقياسَ الفَصَاحَةِ فِي نَظَرِ الْجَاحِظِ الْقرآنُ وكَلَامُ الأَعْرابِ، إذْ فِيْهِمَا تَحَقَّقَتْ الْفَصَاحَةُ بأعْلَى مُستويَاتِهَا، فَاعْتَبِرُا الْمِثَالُ الأعلى للكَلامِ الفَصِيْحِ. فَكُلُّ كَلامٍ أشبههما عدّ فصيحًا، وكُلُّ كلامٍ اختلفَ عَنْهُمَا نَأَى عَنْ الفَصَاحَةِ[١٥٤]، ويُوْرِدُ الجاحظُ قولَ مَنْ يقولُ:"لَيْسَتْ الفَصَاحَةُ لَكُمْ مَعَاشِرَ أهلَ البَصْرَةِ لُغَةً فصيحةً، إنَّا الفَصَاحَةُ لَنَا أَهْلَ مَكَّةَ. قالَ ابنُ مُناذر: أَمَّا ألفاظُنَا فَأُحْكَى الألفاظِ للقُرْآنِ وأكثرُهَا لَهُ مُوافَقَةً، فَضَعُوا القُرْآنَ بَعْدَ هَذَا حَيْثُ شِئْتُمْ"[١٥٥]، ويُفْهَمُ من هَذَا أنَّ الحُكْمَ فِي الخِلافِ بينَ فَصَاحَةِ لُغَةِ أَهْلِ مَكَّةَ والبَصْرَةِ إنَّمَا هُوَ القُرْآنُ.

وَمَدَحَ الجاحِظُ القُرْآنَ ووصفه بالبَيَانِ والإفصاحِ، وبِحُسْنِ التَّفصيلِ والإيْضَاحِ، وبِجَوْدَةِ الإفْهَامِ وحِكْمَةِ الإبْلاغِ[١٥٦]، وتَحدَّثَ الجاحظُ عَنْ بَعْضِ صِفَاتِ القُرْآنِ الكَرِيْمِ قَائِلاً :"ولابُدَّ مِنْ أَنْ نَذْكُرَ فِيْهِ أَقْسَامَ تأليفِ جميعِ الكلامِ، وكيفَ خَالَفَ القُرْآنُ جَمِيْعَ الكَلامِ المَوْزُوْنِ والمَنْثُوْرِ، وهُوَ مَنْثُوْرٌ غَيْرُ مُقفًّى عَلَى مَخَارِجِ الأَشْعَارِ والأَسْجَاعِ، وكَيْفَ صَارَ نَظْمُهُ مِنْ أَعْظَمِ البُرْهَانِ، وتَأْلِيفُهُ مِنْ أَكْبَرِ الْحُجَجِ".[١٥٧]

وتحدَّث الجاحظُ عَنْ القِرَاءَاتِ، وَقَدْ وَرَدَ قَوْلُهُ:" قَالَ النَّخَعيّ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُقَالَ: قراءة عبد الله، وقراءة سالم، وقراءة أُبَيّ، وقراءة زيد، وكانوا يكرهون أن يقولوا: سنَّة أبي بكر وعمر، بل يُقالُ: سنَّة الله وسنَّة رسوله، ويُقَالُ: فلانٌ يقرأُ بوجْهِ كَذَا، وفلانٌ يقرأُ بوجْهِ كَذَا"[١٥٨]،

(١٥٣) الحيوان (٢٠٩/٤).

(١٥٤) البيان والتبيين (١٦/١).

(١٥٥) البيان والتبيين (٢٥/١).

(١٥٦) البيان والتبيين (٣١/١).

(١٥٧) البيان والتبيين (٣٠٤/١).

(١٥٨) الحيوان (٣٣٦/١).

وعلى الرُّغْمِ مِنْ قولِهِ السَّابِقِ فقد أورد الجاحظُ بعضَ القِرَاءَاتِ، ومِنْ ذلك قوله:"قال: في قراءة ابن مسعود: إنَّ كانت إلا زَقيَةً واحدةً ونفخ في الزَّقية يريد الصُّور"[١٥٩]. ويقول الجاحظ أيضًا:"وفيه يقولُ عمرُ بنُ عبد العزيز:«مَنْ سرَّه أن يسمع القرآن غضًّا فليسمعْ قراءة مسلم بن جندب»[١٦٠].

• مَوْقِفُ الْجَاحِظِ مِنْ الاسْتِشْهَادِ بِالْحَدِيْثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيْفِ:

لقد أورد الجاحظ مئات الأحاديث النبوية في كتبه، والعشرات من الأحاديث موجود في كتابه "البيان والتبيين"وحده، وركَّز الجاحظ على إيراد الأحاديث النبوية الشريفة التي بها معان لطيفة وتوجيهات نبوية شريفة، وغير ذلك. ويتباين موقف الجاحظ من الحديث النبوي الشريف مع موقف النحاة العرب القدامى، وليتهم اقتدوا بالجاحظ في هذا الشأن، فعلى الرغم من تأكيد النُّحاة فصاحة النبي بل هو أفصح مَنْ نطق بالضَّادِ، إلا أنَّهم لم يستشهدوا بالحديث النبوي الشريف، لأسباب مردودة، وعلل لم تصمد أمام النقد، واختلف العلماء حول الاستشهاد والاحتجاج بالحديث النبوي الشريف، وهذه المسألة مشهورة في التراث النحوي العربي، ولا داعي للاستطراد في دراسة موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف، فالدراسات وفت وأغنتنا عن دراستها هنا[١٦١].

ويُعدُّ موقف الجاحظ من الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف والاحتجاج به موقفٌ رائد في هذه المسألة، ومن أمثلة الأحاديث التي أوردها الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" ما يأتي: قول الرسول الكريم:(إنَّ مِنْ الْبَيَانِ

(١٥٩) الحيوان (٣٠٠/٢). وينظر في تخريج القراءة: الفراء، محمد بن يزيد، معاني القرآن، (٣٧٥/٢)، وابن خالويه ، مختصر ابن خالويه (ص١٢٥)، والطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري، (٤٨/١، ٥٤)، وذكرها الزمخشري في الكشاف (١٣/٤).

(١٦٠) البيان والتبيين (٢٩٣/١).

(١٦١) للاستزادة ينظر: عيد، محمد ، الرواية والاستشهاد باللغة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م. وغيره .

لَسِحْرًا) [١٦٢]، وقول الجاحظ: وكان رسول الله يقول لأصحابه:(هَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)[١٦٣].وقول رسول الله :(أَشَدُّ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ)[١٦٤]، وقول الجاحظ: وقال: (لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا.أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ)[١٦٥].

وبالبحث يتبيَّن أنَّ الجاحظ روى أحاديث كثيرٌ منها لم يرد في كتب الصحاح بل روى بعضها بالمعنى، ولعل مثل هذا الأمر كان من أهم أسباب رفض بعض قدامى النحويين الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف على القواعد النحوية العربية، ولا مجال لمناقشة هذه المسألة هنا .

• مَوْقِفُ الجاحظِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ شِعْرًا وَنَثْرًا :

لَقَدْ حَرَصَ الجَاحِظُ عَلَى جَمْعِ مَا يَسْمَعُ عَنْ العَرَبِ وتَدْوِيْنِهِ والحَثِّ عَلَى ذَلِكَ، وقد ذكرنا سلفًا موقفه من منهج النّحاة واللغويين في جمع اللغة وتقعيدها، وكذلك عند حديثنا عن موقفه من القرآن الكريم، حيث اعتبر القرآن الكريم وكلام العرب مصدر الفصاحة والبلاغة، ويقول أيضًا في كتابه "البيان والتبيين":"ومَتَى سَمِعْتَ حَفِظَكَ الله نادرة من كلام الأعراب فإيَّاك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنَّك إنْ غيَّرتها بأنْ لَحَنْتَ في إعرابِهَا أو أَخْرجتَهَا مَخْرَجَ كلامِ المُولّدين والبلديين خرجتَ من تلكَ الحكايةِ وعليكَ فضلٌ كبيرٌ، وإنْ سَمِعْتَ نادرةً مِنْ نوادِرِ العَوَامِّ ومِلْحَةً مِنْ مِلَحِهِمْ فإيَّاكَ أَنْ تَسْتَعْمِلَ لها الإعرابَ أو تتخيَّرَ لها لفظًا حَسَنًا، فإنَّ ذلك يُفْسِدُ الإمتاعَ بِهَا ويُخْرِجُهَا من صُورتِهَا الَّتي وُضِعَتْ لَهَا، ويُذْهِبُ اِسْتِطَابَتَهُمْ إيَّاهَا".[١٦٦] بل نرى في « الحيوان » أنّ الجاحظَ يُفضِّلُ أحياناً قول أعرابيّ جاهلي بدويّ على قول أرسطو الفيلسوف الكبير. وكان الجاحظ ينقد ويقيّم ويصف لغات القبائل العربية ، فمثلاً يقول الجاحظ في هذا الشَّأنِ:"ولأهلِ المدينةِ ألسنةٌ ذَلِقَةٌ وألفاظٌ حَسَنَةٌ وعبارةٌ جيِّدَةٌ، واللَّحْنُ في عوامِّهم فاشٍ، وعلَى مَنْ لَمْ يَنْظُرْ مِنْهُمْ فِي النَّحْوِ غَالِبٌ".[١٦٧]

وبالجملة أخذ الجاحظ بما ورد عن العرب شعرًا ونثرًا بضوابط ومقاييس معينة ذكرها في كتبه .

• مَوْقِفُ الجَاحِظِ مِنْ الشُّعَرَاءِ الْمُوَلَّدِيْنَ:

من القضايا المهمة المشهورة في التراث النحوي العربي قضية الاستشهاد بشعرِ المُولَّدِين، حيثُ منعَ جُمهورُ النُّحاةِ الاستشهادَ بِشِعْرِهِمْ، وقد بيَّن الجاحظُ سببًا مهمًّا من الأسباب التي يتَّفقُ فيها مع مذهبِ الجُمهورِ، يُفهمُ ذلك من قوله:" ونقولُ:إنَّ الفَرق بين المولَّد والأعرابي:أنَّ المولَّد يقولُ بِنَشَاطِهِ وجمع باله الأبياتَ اللاحقَةَ بأشعارِ أهلِ البدو فإذا أَمعنَ انحلَّتْ قُوَّتُه واضطربَ كلامُه"[١٦٨].

والجاحظ تناول كثيرًا من أصول النحو دون أن يصرّح بذلك إنَّما طبَّقه عمليًا، وهذا دأب كثير من العلماء العرب القدامى، لكنه صرَّح بأصول الفقه وهي صنو أصول النحو، ومن ذلك قوله:"قالوا: الشَّيءُ لا يَخْرُمُ إلاّ مِنْ جهةِ كتابٍ أو إجماعٍ أو حُجَّةِ عقلٍ أو مِنْ جِهَةِ القياسِ على أصلٍ في كتابِ الله ﷻ أو إجماعٍ""[١٦٩].

(١٦٢) البيان والتبيين (١٣٩/١)، الحديث رواه البخاري في صحيحه، (٥٨/١٣) برقم (٥١٤٦)،و(٤٢٦/١٤) برقم (٥٧٦٧)، والإمام أحمد في مسنده، الشيباني، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة،(٢٦٣/٤) برقم (١٨٣٤٣).

(١٦٣) البيان والتبيين (١٤٠/١)، الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، (٢٣٦/٥) برقم (٢٢١١٦).

(١٦٤) البيان والتبيين (١٦٠/١)، الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، (٤٠٧/١) برقم (٣٨٦٨).

(١٦٥) البيان والتبيين (٢٢٤/١)، والحديث رواه مسلم في صحيحه،(٥٣/١) برقم (٢٠٣).

(١٦٦) ينظر: القلقشندي،أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/ ٢١١) وينظر: البيان والتبيين (٩١/١).

(١٦٧) صبح الأعشى (١/ ٢١٢).

(١٦٨) الحيوان (٣/ ١٣٢).

(١٦٩) الحيوان (٦/ ٨٤).

الْخَاتِمَةُ :

توصَّلت هذه الدراسةُ إلى عدَّةِ نتائجَ، مِنْ أَهَمِّهَا مَا يَأْتِي:

١- كَثُرَتْ كُتُبُ الْجَاحِظِ ومُؤَلَّفَاتُهُ فِي عُلُوْمٍ ومَوْضُوْعَاتٍ شَتَّى، وعَلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ نَقِفْ عَلَى كِتَابٍ مِنْهَا فِي النَّحْوِ! ولَعَلَّ هَذَا اَلْمَلْمَحَ نَاتِجٌ عَنْ ثِقَةِ اَلْجَاحِظِ فِي النُّحَاةِ ومَا قَدَّمُوْهُ مِنْ جُهُوْدٍ فِي هَذَا اَلْعِلْمِ اَلْمُهِمِّ.

٢- اِتَّسَمَ اَلْجَاحِظُ بِاستقلاليَتِهِ فِي آرَائِهِ وفِكْرِهِ وجُرْأَتِهِ، ورَبَطَتْهُ عَلَاقَاتٌ طَيِّبَةٌ مَعْ اَلنُّحَاةِ، سَواء أكانتْ مُباشرةً أَمْ غيرَ مُباشرةٍ، وهَذَا لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ مَدْحِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَوْ نقده؛ وِفْقَ وُجْهَةِ نَظَرِهِ ومَعَايِيْرَ خَاصَّةٍ بِهِ.

٣- إِلْحَاقًا بالنَّتيجَةِ السَّابِقَةِ فَقَدْ اِنْتَقَدَ اَلْجَاحِظُ الخليلَ بنَ أَحْمَدَ فِي أُمُوْرٍ لا تتعلَّق بعلمِ النَّحوِ، ورُبَّمَا تأثَّر فِي هَذَا المَوْقِفِ بِأُسْتَاذِهِ النَّظَّامَ ومَوْقِفِهِ مِنْ الخليلِ.

٤- لَمْ ينقلْ الجَاحِظُ كثيرًا مِنْ آراءِ النَّحويين ولا خِلافَاتِهِمْ أو مَحَاوَرَاتِهِمْ؛ وهي كثيرةٌ ومشهورةٌ فيما بين أيدينا من كُتُبِهِ، ولعلَّهُ فَعَلَ فِي كُتُبٍ أُخْرَى لَهُ لَمْ تَصِلْنَا، وَضَاعَتْ كَغَيْرِهَا مِنْ كُنُوْزِ اَلْمَعْرِفَةِ العَرَبِيَّةِ.

٥- نَقَلَ اَلْجَاحِظُ عَنْ كثيرٍ مِنْ النُّحاةِ أقوالَهُم وآراءَهُمْ فِيْمَا يَخْدِمُ مَوْضُوْعَاتِ الأَدَبِ والفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ والبَيَانِ!!

٦- وَافَقَ اَلْجَاحِظُ النُّحَاةَ واللُّغَوِيِّيْنَ فِيْمَا وَضَعُوْهُ مِنْ ضَوَابِطَ وَشُرُوْطَ لِجَمْعِ اللُّغَةِ وتَقْعِيْدِهَا.

٧- بَدَا الجَاحِظُ مَيَّالًا نَاصِرًا لِلبَصَرَة مَكَانًا ولُغَةً وعلَمَاءَ ونُحَاةً، واستخدامًا لكثيرٍ مِنْ مُصْطَلَحَاتِهِمْ النَّحْوِيَّةِ.

٨- وَافَقَ الجَاحِظُ النَّحَاةَ فِي اِهْتِمَامِهِمْ بِظَاهِرَةِ الإِعْرَابِ، كَمَا أَكَّدَ أَهَمِيَّةِ عِلْمِ النَّحْوِ العَرَبِيِّ بَيْنَ اَلْعُلُوْمِ الأُخْرَى.

٩- اللُّغَةُ تَوْقِيْفِيَّةٌ عَنْدَ اَلْجَاحِظِ.

١٠- ناقش البحث ماذكره بعض العلماء أنَّ اَلْجَاحِظ أَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ مُصْطَلَحَ النَّحْوِ فِي كُتُبِهِ؛ اِسْتنادًا عَلَى رُوَايَةٍ نَسَبَهَا لِعُمَرَ بنِ اَلْخَطَّابِ ﷺ.

١١- يَرَى اَلْجَاحِظُ أَنَّ النَّحْوَ مَنْطِقُ اَلْعَرَبِيَّةِ، ومَكَانَةُ النَّحْوِ تَحلُّ ثَالِثَةً بَعْدَ اَلْقُرْآنِ والْحَدِيْثِ مُبَاشَرَةً.

١٠- دَرَسَ اَلْجَاحِظُ ظَاهِرَةَ اللَّحْن دِرَاسَةً وَافِيَةً، وَهِيَ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ وَضْعِ عِلْمِ النَّحْوِ العَرَبِيّ.

١٢- أوصى اَلْجَاحِظُ بتعليمِ القَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ الأَسَاسِيَّةِ دُوْنَ الاشْتِغَالِ بِالفَرْعِيَّاتِ والخِلَافَاتِ والتَّعْلِيْلَاتِ...إلخ.

١٣- رَصَدَ اَلْجَاحِظُ حَالَ النَّحْوِ فِي عَصْرِهِ؛ عِلْمًا وَتَعْلِيْمًا وَصُعُوْبَةً ومَنْهَجَ تَعْلِيْمٍ وقَدْرَ التَّعْلِيْمِ اَلْمَنَاسِبِ، وَعُلَمَاءَ ومُعَلِّمِيْنَ، ومَوْقِفَ اَلْمُجْتَمَعِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

١٤- أَكَّدَتْ اَلدِّرَاسَةُ فَسَادَ رَأْيِ مَنْ يَرَى أَنَّ اَلْجَاحِظَ يهتم بالألفاظ على حساب المعاني، فَالْجَاحِظُ اِهْتَمَّ بِاللَّفْظِ والْمَعْنَى مَعًا.

١٥- أَوْلَى اَلْجَاحِظُ السَّمَاعَ عِنَايَةً لَافِتَةً، وَيَرَى أَنَّ مصادر الاحتجاج اللغوي هي: اَلْقُرْآنُ اَلْكَرِيْمُ والحديث النبوي الشريف وَكَلَامُ اَلْعَرَبِ.

١٦- أَكْثَرَ اَلْجَاحِظُ مِنْ اَلاسْتِشْهَادِ بِالْحَدِيْثِ؛ مُخَالِفًا بِذَلِكَ مَوْقِفَ النُّحَاةِ فِي عَصْرِهِ، لَكِنَّ اِسْتِشْهَادَهُ لَمْ يَتعلَّقْ بِمَسَائِلَ نَحْوِيَّةٍ، كَمَا لُوْحِظَت رُوَايَتهُ بَعْضَ اَلأَحَادِيْثِ بِالمَعْنَى، وبَعْضُهَا لَمْ يَرِدْ فِي كُتُبِ اَلصِّحَاحِ.

المراجع

١. ابن الأثير، نصر الله بن مُحَمَّد بن عبد الكريم الشيباني، "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢. ابن خالويه،أبو عبد الله الحسين بن أحمد، "(مختصر ابن خالويه) مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع"، مكتبة المتنبي، القاهرة.

٣. ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد، "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت،ط١، ١٩٨٦م.

٤. ابن النديم،مُحَمَّد بن إسحاق، "الفهرست"، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧م.

٥. ابن جني، أبو الفتح عثمان، "الخصائص"، تحقيق: مُحَمَّد علي النجار، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

٦. ابن خلدون، عبد الرحمن بن مُحَمَّد، "المقدمة"، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.

٧. ابن خلكان، أحمد بن مُحَمَّد، "وفيات الأعيان"، تحقيق: إحسان عباس،دار صادر، بيروت.

٨. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، "تاريخ دمشق"، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥م .

٩. ابن كمال، باشا، "رسالة في تحقيق معنى النظم والصياغة"،تحقيق:حامد صادق قنيبي، قسم الدراسات الإسلامية والعربية،جامعة الملك فهد للبترول والعادن، الظهران، السعودية.

١٠. الأصفهاني، أبو الفرج، "الأغاني"، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط٢.

١١. الأصفهاني،أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد، "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء"، دار القلم، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٢. الأفغاني، سعيد بن مُحَمَّد، "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام"، الدار الهاشمية، دمشق، ١٩٦٤م.

١٣. الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن مُحَمَّد، "نُزْهَة اَلأَلِبَّاءِ في طبقات الأدباء"، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن،ط٣، ١٩٨٥م.

١٤. الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن،"لمع الأدلة"،تحقيق:سعيد الأفغاني،منشورات الجامعة السورية،١٩٥٧م.

١٥. البخاري، مُحَمَّد بن إسماعيل،"الجامع الصحيح"، تحقيق:مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.

١٦. البغدادي، عبد القادر بن عمر، "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب"، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١٩٩٧،٤،٤م.

١٧. البغداي، اسماعيل بن مُحَمَّد أمين، "هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

١٨. بوقرة، نعمان، "ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين"، مجلة إسلامية المعرفة، عدد (٥٤)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

١٩. الثعالبي، عبد الملك بن مُحَمَّد، "تحسين القبيح وتقبيح الحسن"، تحقيق: نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.

٢٠. الجاحظ، أبو عمرو بن بحر، "البيان والتبيين"، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ.

٢١. الجاحظ، أبو عمرو بن بحر،"الحيوان"، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان،١٩٩٦م.

٢٢. الجاحظ، عمرو بن بحر، "الرسائل الأدبية"، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ.

٢٣. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن،" دلائل الإعجاز"، تحقيق: مُحَمَّد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١، ١٩٩٥م.

٢٤. الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٢٥. حاجري، مُحَمَّد طه، "الجاحظ حياته وأثره"، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م. وغيرها.

٢٦. الحجوي،مُحَمَّد بن الحسين،"الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"،دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

٢٧. الحريري، مُحَمَّد البصري، "مقامات الحريري"، تحقيق: يوسف بقاعي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٢٨. حسان، تمام عمر ، "اللغة العربية معناها ومبناها"، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٦م.

٢٩. الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي، "طيب المذاق من ثمرات الأوراق"، تحقيق: أبي عمار السخاوي، دار الفتح، الشارقة، ١٩٩٧م.

٣٠. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، "معجم الأدباء"، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣١. الخفاجي،"سر الفصاحة"، عبد الله بن مُحَمَّد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٩٨٢،١م.

٣٢. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد، "سير أعلام النبلاء"، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٣، ١٩٨٥م.

٣٣. الرازي، أحمد بن فارس،"الصاحبي في فقه اللغة"، تحقيق: السيد صقر، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة.

٣٤. الرافعي، مصطفى صادق،" تاريخ آداب العرب"، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٥. الزركلي، خير الدين بن محمود، "الأعلام"، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٣٦. الزمخشري،أبو القاسم محمود بن عمرو،"أساس البلاغة"، الهيئة المصرية للكتاب، ط٣،القاهرة،١٩٨٥م.

٣٧. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٣٨. السيرافي، الحسن بن عبد الله، "أخبار النحويين البصريين"، تحقيق: طه مُحَمَّد الزيني، ومُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦م.

٣٩. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، "المزهر في علوم اللغة وأنواعها"، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٤٠. السيوطي، جلال الدين، "الاقتراح في أصول النحو"، حيدر أباد الدكن، ١٣١٠هـ.

٤١. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، "بغية الوعاة في طبقات اللغويين

والنُّحاةِ"، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

٤٢. الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام، "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس.

٤٣. الشيباني، أحمد بن حنبل، "مسند أحمد بن حنبل"، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٤٤. الصعيدي، عبد المتعال، "بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح"، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٤٥. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، "الوافي بالوفيات"، تحقيق:أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى،دار إحياء التراث، بيروت،٢٠٠٠م.

٤٦. ضيف، أحمد شوقي، "الفن ومذاهبه في النثر العربي"، دار المعارف، القاهرة،ط١٢.

٤٧. ضيف، شوقي، "المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة.

٤٨. الطبري، مُحَمَّد بن جرير، "تفسير الطبري"، تحقيق: محمود شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٣٣٧هـ.

٤٩. العايد، سليمان إبراهيم، "وقفات على إبداعاتٍ للجاحظ اللغوية"، مقال على موقع (شبكة صوت العربية) على شبكة المعلومات الدولية، بتاريخ ٢٧ أبريل ٢٠١٢م.

٥٠. عباس،إحسان، "تاريخ النقد الأدبي عند العرب"، دار الثقافة، بيروت،١٩٨٣م.

٥١. العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي، "الإصابة في تمييز الصحابة"، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ.

٥٢. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، "الصناعتين"، تحقيق: مُحَمَّد علي البجاوي، ومُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت،١٤١٩هـ.

٥٣. العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، "اللباب في علل البناء والإعراب"، تحقيق: عبد الإله النبهان، دار الفكر، دمشق،ط١، ١٩٩٥م.

٥٤. عيد، مُحَمَّد ، "الرواية والاستشهاد باللغة"، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م.

٥٥. الفرَّاء، أبو زكريا يحيى بن زياد،"معاني القرآن"، تحقيق: احمد يوسف النجاتي ومُحَمَّد على النجاروعبد الفتاح شلبي،ط١، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

٥٦. القزويني، مُحَمَّد بن عبد الرحمن، "الإيضاح في علوم البلاغة"، تحقيق: مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣.

٥٧. القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف، "إنباه الرواة على أنباه النحاة"، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

٥٨. القلقشندي،أحمد بن علي، "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٩. القيراوني، أبو علي الحسن بن رشيق، "العمدة في محاسن الشعر"، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.

٦٠. المزي، يوسف بن الزكي، "تهذيب الكمال"، تحقيق: بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيرو، ط١، ١٩٨٠م.

٦١. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط١٩٧٣،٥م.

٦٢. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج،"الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم"، دار الجيل بيروت ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت.

٦٣. منقور،عبد الجليل،"علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي"،اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠١م.

٦٤. النويري، أحمد بن عبد الوهاب، "نهاية الأرب في فنون الأدب"، دار الكتب القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

٦٥. اليوسي، الحسن بن مسعود، "زهر الأكم في الأمثال والحكم"، تحقيق: مُحَمَّد الحجي ومُحَمَّد الأخضر، الشركة الجديدة - دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، ط١، ١٩٨١م.